

إخترنا لك ٦٩

التاريخ السرّي لاحتلال إنجلترا مصر

الكرم

طابه

تأليف : الفريد بلنت

الأول

إخترنا لك :

٦٩

التاريخ السرّى

لاحتلال انجلترا مصر

تأليف

الفريد سكاون بلنت



الرئيس جمال عبد الناصر

مقـــدمة للمؤلف

عن نشر الكتاب في سنة ١٩٠٧

فى عام ١٩٠٤ روجعت مسودات الكتاب الأصلية مراجعة تامة وصيغ القسم الخاص منها بمصر من جديد فى ظروف تزيد كثيرا من أهميته التاريخية . وذلك ان صديقى القديم الشيـــخ محمد عبده الذى ذكر اسمه كثيرا فى هذا القسم اتخـــذ له دارا خلوية بالقرب من ضيعتى المسماة «الشيخ عبيد» بالمطرية واذ ذاك رأيتنى أتحدث اليه فى كل يوم وهى فرصة نادرة لم أضيعهـــا سدى . فهذا الفيلسوف العظيم ــ الذى فجعنا الدهر بوفاته فى الاسكندرية فى ١١ يولية سنة ١٩٠٥ وهو يوم الذكرى الثالثــة والعشرين لضرب هذه المدينة بالقنابل ــ بعد أن عبس له الزمان طويلا بلغ فى سنة ١٨٩٩ مرتبة رفيعة بان صار مفتيا للديار المصرية فخطر له وقد أصبح حاصلا على ذلك النفوذ الكبير بين مواطنيه أن يروى لهم قصة حقيقية عن الحوادث التى وقعـــت فى عصره ، تلك الحوادث التى أصبحوا يسيئون فهمها والتى أحاط بها مـــن الخرافات والاباطيل ما يبعد عن الحقيقة بعد السماء عن الارض .

ولطالما حادثنى فى ذلك الصدد وأسف لعدم وجود فراغ من

الوقت لاتمام ذلك العمل التاريخى . فلما أخبرته بمذكراتى ألح على فى نشرها وقال اذا لم يتيسر النشر بالانجليزيــة فلتنشر على الاقل بالعربية بمساعدته . ثم تعهد بمراجعتها معى ليتأكد أن القسم الخاص بالحوادث التى يعرفها قد روى بدقة تامة . وقد لبثنا منذ أول زيارة لى لمصر صديقين حميمين وحليفين سياسيين ولما كانت حديقته ملاصقة لحديقتى كان من السهل ان تتناول ذكرياتنـــا الرجال والحوادث التى عرفناها . وبهذه الطريقة أخذ تاريـــخ الحقبة التى تهم كلا منا شكله الختامى . وقد أسعدنى الحــظ باتمامه والحصول منه على الترخيص بطبعه قبل ان يقضى موتــه الفجائى على المنبع الوحيد للمعلومات عن الحركة السياسية التى أدت الى ثورة سنة ١٨٨١ وعن الدسائس التى عاقتها فى السنة التالية .

وقد كانت وفاته خسارة جسيمة بالنسبة الى ايضا ، وأخــرت الى أجل غير مسمى نشر هذا الكتاب باللغة العربية . لا بل ان ما وقع من الحوادث الى هذا العام جعل الوقت غير ملائم من الوجهة السياسية لنشر الكتاب باللغة الانجليزية . بيد أن حوادث سنة ١٩٠٦ وانسحاب اللورد كرومر من المسرح المصرى غيرا الموقف تغييرا كليا حتى صرت أرى انه لا ينبغى لى التردد اكثر من ذلك. أن واجبى نحو مواطنى على الاقل يقضى بالمبادرة . فنحن معاشر الانجليز نجد أنفسنا اليوم ـــ من حيث معاملاتنا مع مصر ـــ ازاء نفس

المشكلة التى أخطأنا فهمها وخلطنا فيها ذلك الخلط الفاحش منذ جيل ، فاذا كان المسئولون عن تسيير دفة أمورنا العامة يريدون — كما قلت فى المقدمة الاولى — «ان يعيدوا النظر من جديد فى مركزهم السياسى والادبى فى وادى النيل» بأمانة ولفائدة المجموع فينبغى قبل كل شىء أن توضع أمامهم الحوادث الماضيـــة على حقيقتها لا كما صورتها لهم طول هذه المدة الوثائق الباطلة الواردة من الكتب الرسمية الزرقاء • ولا أظن انى مبالغ اذا قلـــت ان الحوادث التى وقعت فى مصر منذ خمسة وعشرين عاما لا يعرفها بالدقة اللورد كرومر نفسه ولا السير ادوارد غراى بل ولا السير الدون غورست خليفة اللورد كرومر • وهذا بالرغم من اعتراف اللورد كرومر اعترافا متأخرا بأن حركة سنة ١٨٨١ كانت حركـة اصلاح وبالرغم من ثنائه المتكرر على الشيخ محمد عبده كما هو مذكور فى تقريره السنوى الاخير • ويجب أن نذكر هنا أن اللورد كرومر لم يكن فى مصر فى خلال أى دور من أدوار الثورة العرابية وانه كان الى عهد قريب يظن أن «الحقيقة الرسمية» هى وحدهـا الحقيقة الواقعة •

فلهذا السبب عولت نهائيا على نشر هذا الكتاب وأثبت فيـه نصوص مذكراتى بالصورة التى أتممتها بها فى عام ١٩٠٥ ، وقد أقرها صديقى الاستاذ فيما عدا بضع فقرات موجزة يستحسن عدم نشرها لانها ماسة بشخصية افراد لا يزالون على قيد الحياة • وهى

فقرات يمكن الاستغناء عنها دون أن تؤثر فى قيمـــــة الكتاب التاريخية • ويمكننى أن أقول باخلاص اننى جعلت نصب عينى فى كل ما كتبته هنا كشف الحقائق كما عرفتها مبتغيا بذلك اصلاح الأخطاء التاريخية •

واذا كان ثمة سبب آخر يحملنى على النشر فهو راجع الى وعد قديم أبديته علنا فى «مجلة القرن التاسع عشر» فى عددها الصادر فى سبتمبر سنة ١٨٨٢ وتعهدت فيه بأن أتمم يومـــا ما دفاعى الشخصى عن الحوادث المعاصرة لى ، وذلك أننى فى سبتمبر سنة ١٨٨٢ راعيت خاطر المستر غلادستون وأملت أن يصلح ـــ حتى فى تلك اللحظة المتأخرة ـــ الخطأ الذى ارتكبه ضد الحرية فى مصر • فأمسكت ـــ فى وجه مطاعن عديدة لا نظير لها ـــ عن تبرئة نفسى وازاحة الستار عن الامور الخفية التى كانت تبرر أعمالى • لأنه لم يكن فى الاستطاعة أن أبرىء نفسى تماما دون أن أذيع حقائق تعتبر سرية من الوجهة الفنية ولذلك آثرت السكوت •

بيد أن هناك حدودا لواجب الصمت الذى يلزمه الانسان حيال مسلك الرجال العموميين فى الأمور العامة • واننى لواثق من ان احجامى نحو ربع قرن سيكون شفيعى لدى المنصفين اذا هم رأونى الآن ألجأ الى الطريقة الوحيدة الممكنة فى سبيل الدفاع عن نفسى وهى كشف الستار بالتفصيل عن رواية الدسيسة المالية

والضعف السيآسى كما مثلت أمامى وقتئذ مع تقريرها بالوثائــق المعاصرة التى ما زالت فى حيازتى • فاذا مست تصريحاتى هذه بعض ذوى الحيثيات فجوابى هو أن عدم صراحتهــم هو الذى حملنى على التكلم ، اذ فى خلال هذه السنين الطويلة لم يتقــدم للدفاع عنى ولو بكلمة واحدة شخص ممن عرفوا الحقائق معرفة تامــة •

الفصل الاول

مصر فى عهـــد اسماعيل

كانت زيارتى الاولى لمصر فى شتاء سنة ١٨٧٥ ــ ١٨٧٦ حيث قضيت بضعة أشهر متنقلا فى جهات النيل الادنى • وقبل أن أشرح هواجسى فى هذه المرة الاولى التى تعرفت فيها بالمصريين يحسن ، خدمة لهم وخدمة للقراء الاجانب على وجه العمــوم ، أن أقول كلمتين عن حياتى السابقة من حيث علاقتى بالشئون العــامة • وبذلك يستطيعون أن يعرفوا موقفى من أبناء وطنى بالضبـــط فيساعدهم ذلك على أن يفهموا كيف اننى بعد ان كنت مجــرد مشاهد لمايحدث فى بلادهم أصبحت تدريجيا أهتم ببلادهم سياسيا الى ان كان لى فى النهاية ضلع كبير فى الثورة التى حدثت فى مصر بعد مرور ستة اعوام على تلك الزيارة • ومع اننى وقت هــذه الزيارة لم اكن اتجاوز الخمسة والثلاثين ربيعا فاننى كنت قــد رأيت الشىء الكثير سواء فيما يختص بالرجال أوبالشئون العامة

بدأت مبكرا فى الحياة، ونظرا لانتسابى لاحدى الأسرذوات الضياع فى جنوبى انجلترا وذوات التقاليد الشديدة المحافظة، ثم نظرا لاننى كنت على اتصال بزعماء المحافظين فى ذلك العهــد ،

أدخلت فى سن الثامنة عشرة فى الخدمة السياسية أولا بصفة ملحق بالوكالة الانجليزية فى أثينا حيث كان «الملك أوثو» لا يزال على عرش اليونان وظللت فيما بعد ــ لمدة اثنى عشر عاما ــ متنقلا بين الوكالات والسفارات الانجليزية فى طول اوربا وعرضها فتعلمت بعض الشىء مما يختص بمهمتى وقضيت الوقت فى اللهو واتخاذ الاصدقاء. وهكذا أقمت فيما بين عامى ١٨٥٩ و١٨٦٩ بضعة اسابيع فى الاستانة على عهد «السلطان عبد المجيد» ثم لبثت عامين فى المانيا ايام كانت لا تزال مجموعة من ولايات متفرقة ثم عاما فى أسبانيا أثناء حكم «الملكة ايزابيل» وعاما اخر فى باريس أيام بلغ «الامبراطور نابليون الثالث» ذروة المجد والعظمة كما أقمت ردحا قصيرا من الزمن فى سويسرا وفى أميركا الجنوبية وفى البرتغال . ومذكراتى السياسية عن هذه البلاد لذيذة ولكن ليس لها أهمية خاصة فضلا عن أنها خالية من كل أهمية سياسية .

وفى السنوات التى أعقبت حرب القرم كانت سياستنا الانجليزية التى أغضبت الميالين الى المخاطر الخارجية على العكس مما أصبحت عليه بعد ذلك . فقد كان قوامها السلام وتجنب العدوان والترفع عن المكر والخبث اللذين أحرزا لها شهرة الدهاء والفطنة على حساب الشرف والامانة . فالتحمس الرسمى لم يكن مرغوبا فيه فى الوظائف العامة فضلا عن أن فضيحة أى سياسى حديث السن فى نظر وزارة الخارجية كانت لا تحتاج الى

أكثر من توجيه سؤال جديد بشكل يتطلب الجواب العلني • وقد أفهمتنا وزارة الخارجية ذلك نحن معاشر الملحقـــين وصـــغار السكرتيرين بصراحة تامة كما أنها حظرت علينا التدخل فى سياسة أي بلاط ارسلنا لتمثيل بلادنا فيه • بل لقد طلب الينا ان نجعـل انفسنا مرضيا عنا من الوجهة الاجتماعية وأن نقضي الوقت فى اللهو ــ باحتشام اذا أمكن ــ ولكن بشكل غير جدى على كل حـــال • ولا أكون مبالغا اذا قلت انني طول الاثنى عشر عاما التىسلختها فى الحياة السياسية لم يطلب الى مرة تأدية اى واجب ذى قيمـــة سياسية ولو طفيفة • فهذا النظام المثبط للعزائم زهدنى ــ أثناء وجودى فى الخدمة ــ فى السياسة ، فلم اشتغل بها ولم اهتم بهـــا اهتماما جديا الا بعد ذلك بفترة طويلة وفى ظروف مختلفة جاءت كلها عن طريق الاتفاق • وكانت اعمالى بصفتى ملحقا منحصرة فى اللهو والاختلاط الاجتماعى والادبى• فنظمت القصائد وكتبت الرسائل وساعدت سياسيا فى احدى الروايات الجدية التى حدثت فى أوربا وقتئذ ولكننى فعلت ذلك بصفتى مشاهـــدا لا بصفتى ممثلا ، أى كرجل ممن لا يسمح لهم بالاطلاع على ماوراء الستار• وعند اقترانى فى سنة ١٨٦٩ الذى اعقبته وفاة شقيقى الاكبـــــر وصيرورتى الوارث الوحيد لاملاك الاسرة فى مقاطعة سسكس ، اعتزلت الخـــدمة العامة غير آسف والتفت الى بعض المســـائل الخاصـــة التى كانت أهميتها عندى تفوق كل شيء آخر •

ومع ذلك ظلت علاقتى المبكرة بوزارة الخارجية ـ ولو انها لم تكن لتجدد مرة أخرى بصفة رسمية ـ قائمة على أســس من الصداقة • وحسبك انها علاقة رجل اعتزل الخدمة بشرف • وقد أفادتنى فيما بعد هذه العلاقة مضافا اليها تجاريبى فى البلاط الانجليزى والعواصم الاجنبية فائدة لا تقدر عند ما رأيت نفسى مرة أخرى مدفوعا بطريق الاتفاق فى تيار الشـؤون الدولية • فيها حصلت على معرفة فن السـياسة الخارجيـة معرفة دقيقة وأصبحت على اتصـال بالاشـخاص الذين كانوا يديرونها وكان لى اصدقاء عديدون بين هؤلاء الاشخاص وبذلك رأيتنى فى مبدأ حياتى العامة تجمعنى الصداقة الرسمية «باللورد كرى» الذى ظل عدة أعوام يدير دفة السياسة فى وزارة الخارجية و «بالسير هنرى ذرموند وولف» و «بالسير فرانك لاسل» و «بالسير ادوارد ماليت» و « باللورد دوفرين » و « باللورد فيفيان » و «بالسير ريفرسن ولسون» وكلهم كان لهم ضلع فى تكوين التاريخ المصرى فيما بعد • و «باللورد ليتون» الذى صار حاكمـا عاما للهنـد فى السنين التى سبقت أزمة سنة ١٨٨١ مباشرة • كمـا ربطت الصداقه بينى وبين بعض الساسة الاجانـب ومنهم «المسيو نيليدوف» سفير روسيا فى الاستانة و «البارون همبرلى» رئيس وزراء النمسا المتوفى و «المسيو دى ستال» سفير روسيا فى لنـدن لمدة ٢٠ سنة • فقبل زيارتى الاولى لمصر بزمن طويل كانت صداقتى

مع جميع هؤلاء الرجال صداقة متينة . فاذا تكلمت عنهم وحكمت عليهم فانما اتكلم عن دراية تامة باخلاقهم الشخصية جميعا ونظرا لانني كنت كأني احد رجال الكهنوت لم يجز على بسرعة الرياء والنفاق اللذان كانا من السلع التجارية المعتادة في سوق السياسة ولم أنخدع في عمل من الأعمال فأحسبه سياسة عامة وهو في أغلب الاحايين سياسة شخصية . ولا يخفى ان الاعتقاد السائد بين الذين ليس لهم تجارب فردية باعمال السياسة (دبلوماتيكا) هو ان الحوادث العظام في تاريخ العالم نتيجة التنظيم السياسي المتقن وليست ، كما هو الواقع فعلا في كثير من الاحوال ، مترتبة على مصادفات غير منتظرة وعلى شجاعة أو ضعف ــ وأحيانا على ميل شخصي ــ لدى الاعوان المنوط بهم القيام بعمل من الاعمال .

ففي خلال السنوات الاولى التي أعقبت اعتزالي الخدمة شغلت نفسي بشؤوني الداخلية . ولم يكن الا عن طريق الاتفاق ــ كما قدمت ــ انني بدأت أهتم بالسياسة . واذ رأيت نفسي في سنة ١٨٧٣ منهوك القوى ، وفرارا من تحمل فصل الربيع الذي بدأ متأخرا في انجلترا ، قررت أن أقوم أنا وقرينتي بأول سياحة مشتركة لنا في البلاد الشرقية . فذهبنا عن طريق بلغراد والدانوب الى الاستانة حيث وجدنا (السير هنري اليوت) في السفارة . وهناك جددنا تعارفنا بالاصدقاء الآخرين المتصلين بها ومن بينهم (الدكتور ديكسون) الذي سأتكلم عنه فيما بعد بمناسبة مصرع

السلطان عبد العزيز والذى عالجنى بشفقة تامة فى نوبة شديدة من نوبات ذات الرئة والذى أصبحت أشعر نحوه بميل كبير • وكانت الامبراطورية العثمانية تتمتع وقتئذ بفترة هدوء نسبى قبل العاصفة التى قدر أن تهب عليها بعد ذلك فلم أحفل كثيرا بمتاعبها الداخلية ولكن عواطفى كانت فى ذلك الوقت ، ككل عواطف غالبية الانجليز وقتئذ ، مع الاتراك لا مع المسيحيين العثمانيين • وبعد ابلالى من المرض ابتعت ستة براذين من سوق الخيول باسلامبول ثم عبرنا معها الى اسكودار حيث قضينا ستة أسابيع لذيذة من فصل الصيف متنقلين بين التلال وحقول الخشخاش الاناضولية بعيدا بقدر الامكان عن الطرق المطروقة • ورأينا فى ذلك الوقت من حياة الريف التركية بقدر ما سمح به جهلنا التام بلغة البلاد • ولاحظنا ــ كما لاحظ جميع السياح ــ طيبة الاهالى وأماناتهم وسوء حكومتهم • والذى جعلنا نلاحظ ذلك سلوك رجال الضبطية الموكلين بحراستنا نحو الاهالى فانهم كانوا يعاملونهم كما لو كانوا جنودا أجنبية أغارت على البلاد •

ومع ذلك تبينا ان تركيا الريفية كانت بالرغم من كل هــذا الارهاق المالى تتمتع بقسط كبير من الحرية الشخصية كالحرية الموجودة فى انجلترا المكتظة بشرطتها ومأموريها • والحقيقة ان الشبكة الادارية أينما ذهبت فى الشرق وجدتها واسعة الثقوب كثيرة الخروق بحيث تستطيع صغار الاسماك الافلات منهــا ولا

يسمع الانسان فى الاوقات العادية باضطهاد الفقراء والمعوزين • وانى لاذكر حكاية قصصتها على الفلاحين الذين جاءوا يشكون الى بواسطة الترجمان الارمنى ما يجدونه من تشدد الحكومة فى معاملتهم • فقد أخبرتهم ان ثمة بلادا أسوأ حالا من بلادهم بحيث اذا رئى أحد الافراد فى تلك البلاد ليلا فى منعرج احدى الطرقات يجمع قليلا من الاحطاب لطهو طعامه عرض نفسه لخطر الوقوف امام القاضى فى اليوم التالى بل للذهاب الى السجن • وانى لاذكر جيدا ان سامعى أبوا ان يصدقوا وجود مثل هذا الاستبداد فى أى بلد من بلاد العالم وكان الاستنتاج الذى وصلت اليه من هـــذا الحادث البسيط أول خاطر سياسى اتذكره بالنسبة للاشياء الشرقية

أما الشتاء التالى ــ أى الاشهر الاولى من ســنة ١٨٧٤ ــ فقد قضيناه فى بلاد الجزائر • وهنا اشتركنا فى منظر آخر خولنا فرصة للتفكير ، وهو منظر استعباد شعب شرقى استعبادا عنيفــا بواسطة شعب غربى • فان الحرب السبعينية التى خرجت منهــا فرنسا اعقبتها ثورة عربية فى بلاد الجزائر امتدت ألســنتها حتى بلغت أطراف العاصمة نفسها وعندئذ بـــدأ الاهالى المسلمون يجربون عنف وسائل القمع المسيحية • وقد ظهر هذا القمع بابشع مظاهره فى الجهات التى امتدت الثورة اليها أى فى المســـتعمرة الحقيقية حيث انتهزت الادارة الملكية فرصة اشـــتعال الثورة لمصادرة أملاك الاهالى والتحيز للمستعمرين الاجانب على حساب

أصحاب البلاد • وبالرغم من حبى الشديد لفرنسا (وقد كنت مقيماً فى باريس خلال الحرب السبعينية وكنت شديد التحمس فى الدفاع عنها أثناء الحصار) رأيت عواطفى كلها فى صف العرب • أما فى الصحراء ــ فيما وراء جبال الاطلس ــ حيث ساد الحكم العسكرى فقد كانت الاحوال أحسن نوعا لان الضباط الفرنسيين هناك كانوا على العموم أكثر تقديرا لصفات العرب النبيلة وأشــد احتقارا للحثالة المختلطة الاوربية ــ الاسبانية والايطاليــة والمالطيــة والفرنسية ــ التى تتكون منها «الجالية» • كذلك كانت القبائل الكبرى فى الصحراء فى حالة رخاء مادى ومحتفظة بقسط كبير من فخر الاستقلال القديم مما لم يسع القادة العسكريين ســوى احترامه • وقد اختلسنا النظرات لاولئك الاعراب وهم فى «جبل عمور» وأبصرنا طريقتهم القوية فى الحياة فسرنا كل ما رأيناه منهم• ثم أصغينا الى أغانيهم فى امتداح بطلهم الراحل «عبد القادر» ، ومع أننا لم نفهمها نظرا لجهلنا لغتهم فقدأعجبنا بهم وأشفقنا عليهم• ولم تفتنا ملاحظة الفارق الكبير بين حياتهم الدينيـــة تصحبهم جمالهم وجيادهم ، وهى حياة تقاليد عالية مملوءة بذكرى أعمــال البطولة وبين الانحطاط الاخلاقى الدنىء للمستعمرين الفرنسيين وخنازيرهم ودور الخمر • كمــا أثار فينــا ذلك المنظر عاطفة الغضب لعدم التناسق بين هؤلاء الاخيرين سادة البلاد وأولئــك الذين يعتبرون خدما لهم• وكان هذا بمثابة درس سياسى جديد

أثر فى أشد تأثير ولو أننى ظللت أعتبره أمرا لا علاقة له بشخصى بحال من الاحوال •

ذلك كان التدريب التحضيرى فى حياتى السياسية وتلك كانت ظروفه الاساسية عندما زرت مصر أول مرة كما قلت فى شتاء سنة ١٨٧٥ ــ ١٨٧٦ • والمسألة الوحيدة الاخرى التى قد تستحق شيئا من التفسير والايضاح وخصوصا للقراء غير الانجليز، وهى مسألة ستقدرها أوربا قدرها ، هى أن قرينتى «اللادى آن بلنت» التى صحبتنى فى سائر هذه الرحلات كانت حفيدة شاعرنا الوطنى الطائر الصيت (اللورد بيرون) وبهذا ورثت عنه شيئا من العطف على قضية الحرية فى الشرق وهو عطف ترك أثره فى أعمالنا اللاحقة فقد بدا لنا فى أثناء وقوع حوادث سنة ١٨٨١ ــ ١٨٨٢ • ان مؤازرة الحركة العرابية يعتبر عملا مجيدا كالذى مات فى سبيله بيرون فى سنة ١٨٢٧ • ولم يدر بخلد احد منا نحن الاثنين حتى الآن أى فى سنة ١٨٧٥ ــ ان زيارتنا لمصر ستكون شيئا غير مجرد رحلة لذيذة أخرى فى بلاد الشرق • وكانت خطتنا عند مغادرة انجلترا أن ندخل مصر من الجنوب عن طريق سواكن وكسلاوالنيل الازرق ثم نسافر شمالا الى القاهرة فندخلها فى الربيع • ولكن هذه الخطة لم تتحقق ــ نظرا لسير الحملة الحبشية الذى كان وقتئذ لغير مصلحة مصر ــ ولم يتحقق سوى جزء واحد من الخطة الاصلية • فبدلا من النزول فى الاسكندرونة كما كانت العادة

المتبعة حينئذ ذهبنا من طريق القنال الى السويس حيث وطئت أقدامنا الاراضي المصرية أول مرة .

وكل ما أتذكره وقت ذاك عن مصر هو اختراقنا لبحيرة المنزلة في آخر يوم في سنة ١٨٧٥ — وكانت يومئذ وطنا آمنا لطيور لا حصر لها — وهو منظر عجيب حقيقة للحياة الطبيعية المصرية في طريقنا الى نقطة واقعة على القناة شمالى الاسماعيلية . فلله ما كان أبهج ذلك المنظر ! ان بحيرة المنزلة كادت وقتذاك أن تكون منطقة عذراء وقد فاقت أسراب البشروش والبط والبجع وأبى قردان التى غطتها كل ما يتصوره العقل عن كثرتها . بل ان المياه أيضا ، مياه البحيرات ومياه القناة نفسها ، كانت غاصة بالاسماك ذوات الحجم الكبير حتى أن سفينتنا اصطدمت بالكثير منها أثناء اجتيازها للبحيرة بينما كانت من جهة أخرى عرضة للبزاة والاغربة التى كانت واقفة على العوامات والساريات تربصا بفريستها . وأحسب أن انسياب مياه البحر أول مرة على أراض لم تكن من قبل مغطاة بالماء مكن السمك من التمتع بتربة ذات خصوبة نادرة وهذه مزية فات أوانها منذ ذلك الحين ولكن الشيء الثابت هو أن السمك والطير أخذا في التلاشى بعد ذلك بسرعة حتى انه لا يحتمل على ما يظهر أن تمتع أعين السياح ثانية بالمنظر البديع الذى شهدناه في ذلك الشتاء .

ثم نزلنا في السويس في الايام الاولى من عام ١٨٧٦ فكان أول

ما قابلنا نبأ الانهزام الشنيع الذى نزل بالجيش المصرى فى بلاد الحبشة • ولم تكن تفاصيل الهزيمة قد عرفت بعد ولكن يظهر أن سبع فرق من جنود الخديو قد أبيدت على بكرة أبيها وتناقلت الالسن اشاعة فحواها أن ابن الخديو ــ الامير حسينا ــ وقع فى الاسر وان العدو شوهه تشويها • وهذه اشاعة ظهر كذبها فيما بعد لان الامير ، وكان صبيا فى ذلك الحين ، خطف من ساحة القتال فى جهة (قور) فى طليعة النهار قبل الانهزام كما حدث لنفس راتب باشا قائد الجيش المصرى الذى كان الامير فى عهدته • وفقد (لورنج باشا) القائد الامريكى حياته فعلا مع بضعة آلاف من الجنود • وبهذه الهزيمة انتهت أحلام الخديو اسماعيل فى انشاء امبراطورية شاسعة الاطراف على ضفاف النيل • وأثرت هذه الهزيمة فى خطتنا الصغيرة فجعلت سفرنا بطريق كسلا ضربا من المستحيل علينا وقضت بان نسافر عن طريق آخر أقل خطورة الا وهو طريق الوجه البحرى •

وكنا شديدى الرغبة فى رؤية مصر باقل كلفة مما يراها به السائح العادى • ونظرا لانه كانت لدينا الخيام اللازمة للرحلة الطويلة استأجرنا جمالا فى السويس وقصدنا القاهرة عن طريق القوافل القديم • وليس من الضرورى أن أقول شيئا كثيرا عن رحلتنا فى الصحراء • فالايام الاربعة التى قضيناها مع الجمالين البدو كانت أول درس عملى لنا فى اللغة العربية ــ لاننا فى بلاد

الجزائر كنا تحت رحمة المترجم ـ كما أنها وضعت أساس علاقاتنا مع القبائل فى صحراء بلاد العرب ، وهى علاقات أصبحت فيـما بعد لذيذة ومتينة • ثم وصلنا الى القاهرة فى صبيـحة اليـوم الخامس •

فعند وصولنا الى العباسية حيتنا رصاصات الجنود المصريـة وهى فى أثناء التمرين لاننا ضربنا الخيام فى الظلام وبدون علـم منا وراء أهدافهم مباشرة • وكانت رماية الجنود غير محكمة فلم تحدث اصابة • ولم يخطر ببالنا وقتئذ اننا قد نهتم يوما ما بأفعال أولئك الجنود بصفتهم جيشا أو أن تتجه اليهم يوما ما عواطفنا فى حرب طاحنة ضد مواطنينا • وكنت وقتئذ ممن يؤمنون ولكن فى غير تحمس بالعقيدة الانجليزية الشائعة ألا وهى أن لانجلترا فى الشرق مهمة سماوية وأن حروبنا هناك لم تكن الا من أجـل أغراض نزيهة صالحة • ولم يكن شىء أبعد عن ظنى من أن نكون نحن معاشر الانجليز مجرمين بانتهاك حرمة العدالة بالسلاح لمجرد أهوائنا ومصالحنا الانانية •

كما لا ينبغى أن أقول شيئا بالتفصيل عن القاهرة التى اجتزناها ذلك اليوم دون أن نمكث فيها غير بضع دقائق للسؤال عن بريدنا فى دار القنصلية • وكان غرضنا أن نرى الجهات الريفية لا أن نضيع الوقت فى مدينة هى أوربية فى طريقة حياتها • وقد ظننا أننا سنجد فيما وراء النيل مباشرة أرضا موافقة نضرب خيامنا فيها ولذلك

واصلنا المسير ولم نفهم توسل الجمالين الينا كي نحط الرحال وندعهم وجمالهم يعودون الى بلادهم كما لم ندرك أننا كنا نسيء اليهم بحملهم على نقض العادات المتبعة عند القبائل التى يحظر عليهم بصفتهم من بدو الصحراء الشرقية تخطيها الى الصحراء الغربية • وبالرغم من الحاحهم واصلنا المسير عن طريق كوبرى قصر النيل ومن ثم الى طريق الجيزة • وحينئذ لمحنا الاهرامات عن بعد فأمعنا نحوها بتلهف واشتياق ولم يمنعنا من ادراكها الا اختفاء الضياء الذى خيم علينا وقت غروب الشمس بالقرب من قرية «الطلبية» الصغيرة التى ليس بينها وبين الاهرامات الا قرية أخرى • وهناك حططنا الرحال أول مرة على تربة النيل السوداء ولم تكن قد جفت بعد من فيضان الخريف • فقابلنا اهالى «الطلبية» الاجواد بكل اكرام كما هى عادتهم • ومع انهم يعيشون فى طريق السائحين الى الاهرامات وقد اعتادوا أن يعاملوا السائحين الفرنسيين كما لو كانوا فريسة لهم فان نزولنا فى قريتهم لقضاء سواد الليل أعطانا صفة الضيوف • ولم يحدث قط أن وقف بمنازلهم شخص واحد من جميع الاوربيين الذين مروا بقريتهم طول السنين الخالية • ولذلك كانت علاقتنا معهم ودية من بداية الامر • وقد خدمتنا هذه الصدفة فى تعرفنا الى قرويين آخرين عندما استأنفنا المسير من جديد بعد قضاء بضعة ايام بين هؤلاء • ولم يكن أمامنا فى ذلك الوقت الا المكث حيث كنا لان الجمالين رفضوا بتاتا مرافقتنا خطوة

أخرى فدفعنا لهم أجورهم فقفلوا راجعين الى ديارهم تصحبهم جمالهم فتعين علينا استئجار جمال اخرى • وعلى ذلك قضى القدر بأن أقضى الاسبوع الاول فى مصر باحثا منقبا عن الجمال فى أسواق القرى المجاورة ثم اشتريت السروج والقرب وسائر المعدات اللازمة لمواصلة الرحلة •

وكان الفلاحون فى ذلك الوقت فى أشد حالات الضنك • وكان هذا هو العام الاول من الثلاثة الاعوام الاخيرة المروعة فى حكم الخديو اسماعيل • وكان المفتش اسماعيل صديق المشهور لا يزال فى أوج عزه وحملة القراطيس الاجانب يجأرون مطالبين بدفع الاقساط «الكوبون» والمجاعة على أبواب الفلاحين • وكان من الامور النادرة فى تلك الايام أن يرى الانسان شخصا فى الحقول وعلى رأسه عمامة أو على ظهره شىء أكثر من قميص • وحتى فى ضواحى القاهرة وبالاكثر فى الفيوم التى يممنا بوجوهنا شطرها بمجرد حصولنا على الجمال ، يمكننى أن أقول ان الحالة كانت كذلك • وكان بين مشايخ القرى قليلون يملكون عباءة • وأينما ذهبنا كانت الحال كذلك • وغصت مدن الارياف فى أيام الاسواق بالنساء اللاتى أتين لبيع ملابسهن وحليهن الفضية للمرابين الاروام لان جامعى الضرائب كانوا فى قراهن والكرباج مشهر فى أيديهم • فابتعنا مصوغاتهن الزهيدة وأصغينا الى قصصهن واشتركنا معهن فى استنزال اللعنات على الحكومة التى جعلتهن عرايا • ولم لكن

فهمنا وقتئذ ــ أكثر مما فهمه القرويون أنفسهم ــ ذلك الضغط المالى الآتى من أوربا والذى كان السبب الحقيقى فى هذا الضيق. وعلى ذلك جاريناهم فى القاء اللوم كله على اسماعيل باشا واسماعيل صديق دون ان يخامرنا شك فى أن الانجليز أيضا يقع عليهم جانب من اللوم .

وكان القرويون فى منتهى الصراحة . وكان الانجليز وقتئذ محبوبين فى سائر البلاد الاسلامية لأن الناس كانوا يظنونهم بعيدين عن الدسائس السياسية المعروفة عن الفرنسيين وكانوا يعتبرونهم أكثر من هؤلاء أمانة ونزاهة فى معاملاتهم التجارية . وفى الواقع كان الانجليز فى مصر على النقيض مما كان المخاطرون من حثالة الأمم الواقعة على شواطىء البحر المتوسط كالمرابين الطليان والاروام والمالطيين الذين كانوا يمتصون دماء الحياة من الفلاحين المسلمين . وكانت ثمة اشاعة بلغت القرية عن احتمال تدخل من جهة أوربا وكانت فكرة التدخل غير مكروهة على شرط ان تكون انجلترا هى التى تنفذها . وكانت الحالة مما لايمكن احتمالها ولذلك كان الأهالى الجائعون ينظرون بعين الابتهاج لاى تغيير أملا فى أن يكون فيه خلاصهم . وقد ظهرت انجلترا فى نظر الفلاحين وهم فى حالة تسول فعلى وبعد أن جردوا من أمتعتهم وضربوا حتى كادوا يموتون جوعا بمظهر العناية المحسنة والصديقة الغنية البعيدة عن الأغراض، المنصفة للمظلومين

والصديقة للمقهورين فكانت فى نظرهم صورة طبق الاصل مما كان عليه معظم السائحين الانجليز الذين كانوا يروحون ويغدون وقتئذ وايديهم ووجوههم طافحة بعلامات العطف . وهكذا لم يخامرهم الشك فى الاطماع التجارية الهائلة التى دفعتنا ـ كأمة ـ الى اعلان العدوان على الشعوب المستضعفة فى سائر أنحاء العالم.

وفى عام ١٨٧٦ كنت أنا أيضا ـ كما قدمت ممن يؤمنون بانجلترا كما كنت أدين بالعقيدة الذائعة وقتئذ عن حكمها فى الشرق وكان جل ما أتمناه لمصر أن تشترك مع الهند ـ التى لم أكن رأيتها بعد ـ فى التمتع بحمايتنا . وقد كتبت وقتئذ فى مذكراتى ما نصه : « ان المصريين شعب طيب أمين ككل شعب حر فى العالم . نعم كل المصريين أى الذين لا يتربعون فى الوظائف العالية لاننى لا أعرف شيئا عن هؤلاء . فكل المصريين القرويين لديهم كل الفضائل اللازمة لجعل الجماعة سعيدة ناعمة البال فهم عاملون مبتهجون طائعون للقوانين ثم هم فوق كل شىء مستقيمون لا فيما يختص بالمشروبات الكحولية فقط بل فى كل الملاذ التى تجنح اليها االطبيعة البشرية . فهم ليسوا مقامرين ولا مشاغبين ولا محبين للدعارة والتهتك . وهم يحبون بيوتهم وزوجاتهم وأطفالهم . وهم آباء وأبناء صالحون كثيرو الشفقة على العجماوات والزمنى والمتسولين والمعتوهين . وهم خلو من كل تعصب جنسى وقد يكونون خلوا من التعصب الدينى أيضا . وغلطتهم الكبرى

هى حب المال ولكنها غلطة يستطيع دهاقنة الاقتصاد السياسى التسامح فيها . وقد يصعب ان يعثر الانسان فى أى جهة على شعب أكثر استعدادا من المصريين لادراك الغاية الاقتصادية لاكبر سعادة تشمل أكبر عدد . فكل مطامحهم هى أن يعيشوا ويدعوا غيرهم يعيش وأن يسمح لهم بالعمل والاحتفاظ بنتاج أعمالهم وأن يبيعوا ويشتروا بدون تدخل وأن يفلتوا من الضرائب . ولقد اسيئت معاملتهم وذاقوا الامرين منذ قرون عديدة دون ان تتغير طيبة قلوبهم . وهم ليسوا بالمتحمسين فى الوطنية ولا بالمتعصبين ولا بالاسخياء الى درجة الخيالات . ثم انهم خالون من المعايب الشائنة فكل رجل منهم يعمل لنفسه او لاسرته على الاكثر اما فكرة التضحية الشخصية للمصلحة العامة فغير مفهومة لديهم ولكنهم بريئون من الدسائس لاستعباد اقرانهم . وبالرغم من الاضطهاد الفظيع الذين هم ضحيته لم نسمع كلمة ثورية وليس ذلك ناشئا عن انهم يقدسون حكامهم تقديسا خرافيا بل لان الثورة ليست فى طبائعهم أكثر مما هى فى طبائع قطيع من الغنم(١) . وانهم ليحبون ملكة انجلترا او البابا او ملك اشانتى بلهف متساو لو ان هؤلاء جاءوهم بنعمة تخفيض عبء الضرائب وبمقدار قرش فى الجنيه .

تلك كانت خواطرى الاولى عن مصر فى بدء عام ١٨٧٦ وهى

---

(١) اذا كان هذا صحيحا فبم يعلل الكاتب ثورات سنة ١٨٧٩ ، ١٩١٩ ، ١٩٣٥ ، ١٩٥٢ م ؟

صحيحة فى مجموعها غير اننى كنت بعيدا عن نمو الافكار السياسية فى المدن فلم أعرفه. كما أننى لم أفهم تأثير المالية الاوربية فى المشاق التى كان الفلاحون يشكون منها . ومع ذلك رأيت عند عودتنا الى القاهرة فى شهر مارس شيئا مما يجرى وراء الستار . لأن لجنة «المستر كيف» كانت قد وصلت فى ابان تغيبنا وحطت رحالها فى أحد القصور الواقعة فى شارع شبرا . وقد عرفت من أحد أعضائها «فيكتور بكلى» الموظف بوزارة الخارجية والذى كان صديقا قديما لى ومن «الكولونيل ستاوتون» فتصلنا العام شيئا عن الشئون المالية. وانضم الى أعضاء اللجنة المالية فيمابعد صديق آخر هو «السير ريفرز ولسون» الذى قدر أن يلعب دورا مهما فى الشؤون المصرية . ولست بحاجة لان أثبت هنا تفصيلا التقرير الذى وضعوه عن حالة مصر. وقد يساعد على فهم الحالة أن أذكر بالاجمال كيف تألفت هذه اللجنة التى هى الاولى من نوعها.

فقد بدأ حكم الخديو اسماعيل فى وقت بلغ فيه رخاء مصر المادى درجة عالية . وكان سلفه سعيد رجلا متنورا قدم للفلاحين كل ضروب التشجيع فى المسائل الزراعية . وكان قد تنازل عن دعوى الخديو فى أن يكون وحده مالك الأراضى فى وادى النيل واعترف بحقوق الملكية للاهالى وقضى بأن تكون ضريبة الاراضى زهيدة أى ٤٠ قرشا عن الفدان . فأدى ذلك

الى رخاء الاهالى بصفة عامة وأصبح الفلاحون فى كل جهة بعد تحررهم من حالة العبودية القديمة التى وضعهم فيها باشوات الجراكسة يدخرون الاموال • أى أن مصر فى نهاية حكم سعيد لم تكن فقط أسعد ولايات الامبراطورية العثمانية بل كانت من الوجهة الزراعية فى طليعة الامم الناهضة فى الشرق وكان ايرادها أقل مما هو الآن ـ لا يزيد على أربعة ملايين من الجنيهات ـ وكان يجمع بمنتهى السهولة ثم كانت نفقات الادارة زهيدة جدا وكان الدين الاهلى لا يتجاوز ثلاثة ملايين من الجنيهات • نعم ان سعيدا فى أواخر حكمه منح امتيازات غير قليلة لبعض الأفاقين الاجانب بشروط أصبحت تدريجيا حملا ثقيلا على عاتق الدولة ولكن الرخاء العام فى البلاد كان كبيرا الى حد أن هذه الشروط مما يحتمله نظام الضرائب الخفيف حتى أن الخديو كان لديه بعد دفع سائر النفقات السنوية ما لا يقل عن نحو مليونى جنيه لمصروفاته الحرة • وفى الواقع لم تشهد مصر فى جميع أطوارها مثل ذلك العصر الذى بلغ فيه الأهالى ذلك الحد من الرخاء المادى حتى ان الفلاحين أصبحوا يسمونه « العصر الذهبى » فكان اسماعيل عند تبوئه العرش فى عام ١٨٦٤ أوسع الأمراء المسلمين ثروة وحكما فى بلد يعتبر فى مقدمة البلاد الاسلامية رخاء ويسرا •

وكانت أخلاق اسماعيل قبل أن يتبوأ العرش أخلاق رجل

واسـع الثروة يتبع فى ادارة ضياعه الشاسعة فى الوجه القبلى أحدث الأنظمة الزراعية ، وكان موضع اعجاب السـائحين الاجانب بسبب الآلات الزراعية التى أدخلها والمصروفات التى جعلها تعود بالفوائد .

ومما لا يب فيه أن اسماعيل له أكثر من النصيب العـادى من الذكاء الطبيعى والاستعداد التجارى اللذين اشتهرت بهما أسرة محمد على . وكان اعتلاؤه العرش موضع دهشة له لأنه لم يكن ولى العهد المباشر الى ما قبل وفاة سعيد ببضعة أشهر وكانت آماله آمال رجل مثر . وربما كانت نفحة القدر هـذه نفحة غير منتظرة فى أول حكمه هى التى دفعته الى الاسراف . واذ كان ميالا بطبيعته الى المضاربة وشديد الشره فى جمـع الاموال فقد حسب ـ على ما يظهر ـ أن ميراثه هذا وتمتعه الفجائى بهذا السلطان المطلق ليسا الا وسيلة لتكديس ثروته وفى الوقت نفسه كان شديد العجب ولعا باللهو فضاع صوابه بهذا المركز السامى وبالفرصة التى أصبحت سانحة له كى يظهر أمام العالم بمظهر الامير الواسع الثروة .

وفى الحال أحاط به المملقون على اختلاف أنواعهم مـن وطنيين وأجانب فوعدوه أن يجعلوه من جهة أغنى الماليين ومن جهة أخرى أعظم الحكام الشرقيين شأنا .

وخانه ذكاؤه ومهارته التجارية فى اصغائه لهؤلاء الناصحين الذين جعلوه آلة فى أيديهم • وكان قبل تبوئه العرش قد حذق مهنة جمع الاموال بالطريقة التى كانت الاموال تجمع بها وقتئذ فى مصر ثم انه كان قد تربى تربية أوربية — وهى من نوع التربية التى يصطنعها الشرقيون(١) فى شوارع باريس — أى تربية سطحية فيما يختص بالامور الجدية فكانت هذه التربية كافية لاقتناعه بمقدرته على مقاتلة أشرار البورصة بنفس سلاحهم ولكنه لسوء الحظ ضل السبيل فى كلا الحالين •

وكانت مناورته الأولى بسيطة وناجحة فى آن واحد، وذلك أنه وجد الايراد المتجمع من ضريبة الاراضى قليلا فرأى أن يزيده برفع الضريبة بين آن وآخر ، فرفعها من ٤٠ قرشا عن الفدان — وهو المقدار الذى كان معمولا به عند تبوئه العرش — الى ١٦٠ قرشا ولا تزال كذلك الى الآن • وكانت البلاد فى أوائل حكمه فى رخاء وانتعاش فاستطاعت فى البداية أن تحمل ذلك العبء الاضافى أى أن الناس كانوا يدفعون هذه الزيادة من الاموال التى زادت عن حاجتهم وقد استمروا على ذلك بضع سنين دون أن يشعروا بغضاضة ما • بيد أن رفع الضرائب لم يكن سوى جزء من برنامج اسماعيل الجشع •

---

(١) هذا التعميم فى الحكم ليس صحيحا على اطلاقه ، فرفاعة رافع الطهطاوى لم يسلك هذا السبيل (اللجنة)

وقد ذكر له متملقوه الوطنيون أن الأراضي برمتها كانت فى عهد جده ملكا خاصا للوالى وأن محمد على ظل الى عدة سنوات صاحب الامتياز فى تجارة مصر الخارجية فعول على احياء هذه الحقوق فى شخصه ٠

ومع انه لم يجترىء ـ فى مواجهة الاجانب ـ على مصادرة الأراضى مصادرة علنية فانه أدرك غايته من طريق آخر وبسرعة مدهشة حتى انخمس الاراضى الزراعية فى القطر المصرى أصبح ملكا له ولما يمض على حكمه سوى بضع سنوات ٠ وكان طريقة فى ذلك الارهاب والضغط الى أن تصبح الأراضى التى يريد اغتصابها عالة على أصحابها وتضيق فى وجوههم المسالك فيضطروا الى التخلص منها بأثمان زهيدة ٠ وقد حصل بهذه الوسيلة كما قدمت على أراض شاسعة وظن أنهاستكون مصدر ثروة عظيمة له ٠ ولكن جشعه هذا كان سببا فى افلاسه فقد ظهر من الوجهةالعملية أن أطيانه لماكانت مع صغار الملاك كانت تدار ادارة حسنة وعادت عليه بربح كبير بعكس هذه الاملاك الواسعة التى فتحت عليه أبواب الخسارة من عدة طرق ٠ فعبثا أنفق الاموال الطائلة فى شراء الآلات الزراعية ٠ وعبثا فرض على قرى وجهات بأسرها امداده بعمال السخرة ٠ وعبثا أنشأ المصانع فى أراضيه وجلب لها المديرين الاجانب بمرتبات فادحة ٠ وقد نهبه أعوانه فى كل جهة الى حد أن المال الذى

جمعه من هذه الاراضى كان أقل بكثير مما كان يحصله منها من الضريبة عندما كانت ملكا للاهالى • وكانت هذه باكورة متاعبه المالية لأنها صادفت هبوط أسعار المحصولات وخصوصا أسعار القطن فجاءت ضغثا على ابالة كما أنها كانت باكورة افلاس الفلاحين الذين أثقلتهم مختلف الضرائب غير المنتظمة لسد عجزه • وكان اسماعيل صديق المفتش المشهور ساعده الأيمن فى هذه السياسة الخرقاء •

ولم يمض غير قليل حتى أوقع اسماعيل نفسه فى أيد أشد فتكا وتوغل فى مشروعات أبعد خطرا من مشروعاته السابقة • فاننا اذا تركنا جانبا الاموال الهائلة التى بددها يمينا وشمالا كأنها المياه على ملاذه الشخصية ، وحماقته فى بناء القصور ، وطيشه مع النساء الأوربيات، وخرقه فى اقامة الحفلات الملوكية، اذا تركنا كل ذلك جانبا فانه كانت توجد الى جانبه مشروعات أخرى عظيمة تكفى لاستنزاف خزانة أية مملكة فى العالم • فليس يعرف أحد بالدقة كم أنفق اسماعيل من الملايين فى الاستانة للحصول على لقب الخديوية ولتغيير نظام الوراثة لمصلحة ولده • ولكن يحتمل أن يكون قد دفع مبالغ طائلة • هذا عدا الاموال الجسيمة الاخرى التى أنفقها فى مضاربات خرقاء وفى تعهدات قطعها على نفسه مع بعض الشركات الاجنبية • وأخيرا

كانت هناك حملة النيل الأعلى ومحاولته فتح مملكة الحبشة. فلكى يجد الأموال الكافية لكل هذه المشروعات التجأ الى الاقتراض أولا فى نطاق ضيق من أصحاب المصارف المحلية أى من أروام الاسكندرية ثم فيما بعد ، بشكل أشد طيشا ، من البورصات الاوروبية .

وكان نوبار باشا صديق السوء فى مشروعاته هذه . ونوبار هذا ممول أرمنى ــ أصبح بفضل جهل طبقة معينة من المصريين بالتاريخ يلقب « بالمصرى الوطنى » فى حين أنه الوحيد الذى يتحمل بعد اسماعيل أكبر مسئولية عن خراب مصر المالى فقد أرسله سيده للبحث عن الأموال بأى سعر للانفاق على حاجاته الباهظة . فعقد له فى أوربا القرض تلو القرض بشروط جعلته لا يستلم أكثر من ٦٠ فى المائة من المبالغ التى استدانها بينما استولى نوبار على عدة من ملايين الجنيهات باسم السمسرة . فقد ثبت أن اسماعيل لم يتسلم سوى ٥٤ مليون جنيه تقريبا من الديون التى بلغت ٩٦ مليونا .

وفى الوقت الذى كنت أكتب فيه ذلك لم يكن اسماعيل قد عقد اتفاقاته الكثيرة بيد أن فوائد الدين بلغت أربعة ملايين من الجنيهات سنويا فللحصول على ايراد كاف لتسيير دفة الادارة ولتمويل الحرب الحبشية أصبحت أموال الفلاحين

تنهب منهم تحت ضغط الكرباج • فالذين يتكلمـــون الآن بخفة فيصفون اسماعيل بأنه لم يكن مجرما بل كان أميرا يستحق بعض الرحمة والعطف لبيعه البلاد ماليا الى المولين الاجانب انما يجهلون الحقائق ولا يدركون تمام الادراك مبلغ الخراب الذى أنزلته حماقته وأنانيته برعيته من الفلاحين •

فلقد ثبت بصفة قاطعة أن حكم اسماعيل كلف مصر لحـو ٤٠٠ مليون جنيه •

وعندى أنه ليس ثمة مبالغة فى هذا التقدير لأنه يشمـــل كل ما ادخره الفلاحون فى سنى الرخاء العديدة وجميع دوابهم تقريبا وهذا عدا الدين العام •

وفضلا عن ذلك خلف اسماعيل الفلاحين مدينين شخصيـا لمرابى الاروام وغيرهم بما يقرب من عشرين مليونا من الجنيهات

تلك كانت أسباب تعاسة مصر كما وقفت عليها فى القاهرة فى ربيع عام ١٨٧٦ أما فيما يختص بأصل تدخلنا المالى فهــو يرجع بلا نزاع الى حماقة اسماعيـل فى ذلك العهد لا الى أى دافع سياسى ـ على ما أعلم ـ من جهة انجلترا • فقــد طلب فى خريف سنة ١٨٧٥ بواسطة « الكولونيل ستاوتتون » أن تساعده الحكومة الانجليزية ماليا وبشكل لا مناص معه من أن تتخذ تلك المساعدة صفة سياسية •

والسبب الذى دعاه الى تفضيل انجلترا على فرنسا وائتمانها على سره هو أنها كانت أقدر من فرنسا على مساعدته ، لأن الحكومة الفرنسية كانت لا تزال تئن من نفقات الحرب السبعينية فكانت عاجزة عن مساعدته بأية طريقة عملية . أضف الى ذلك ـ كما قدمت ـ أن الصداقة القديمة بين انجلترا وتركيا وامتناع الانجليز الى ذلك الحين عن الدسائس التجارية فى مصر ربما أقنعاه هو وغيره من مسلمى الشرق بأن انجلترا دولة بعيدة عن المطامع والغايات فيما يختص بالامبراطورية العثمانية .

وبما أن خطة الحكومة الفرنسية فى مسألة قناة السويس بوجه خاص كانت موضع الشك فقد كان من الطبيعى عندما وطد عزمه على بيع حصته فى أسهم القناة أن يعرض ذلك على انجلترا لا على فرنسا .

وانى لأذكر جيدا الأثر الذى أحدثته هذه الصفقة فى انجلترا وقتذاك فانها لم تقابل بالرضاء العام ، بل ان كثيرين لاموا « دزرائيلى » أشد اللوم على توريطه الحكومة فى مسألة كان من المحتم أن تكون لها نتائج سياسية .

والأمر غير المعروف فى مصر ـ على ما أظن ـ هو أن قرار شراء حصة الخديو بمبلغ أربعة ملايين جنيه لم يصدر باجماع

رجال الحكومة الانجليزية ـ لأن « اللورد دربى » كان معارضا فيه ـ وانما صدر على مسئولية رئيس الوزراء وحده وهو الذى اتفق ـ بدون استشارة أحد من زملائه المتغيبين عن لندن سوى اللورد دربى ـ مع بيت روتشيلد على تقديم هذا المبلغ .

ولا أعرف ماذا كان يجول فى خاطر « دزرائيلى » من الوجهة السياسية فى صدد هذا الشراء ولكن الامر الذى أعرفه تمام المعرفة هو أن « اللورد دربى » الذى كان وقتئذ وزيرا للخارجية لم تدر بخلده أية فكرة سياسية عدوانية بصدد الصفقة . فقد كان رأى اللورد دربى من وجهة السياسة الخارجية عدم التدخل بتاتا كما أن دزرائيلى لم يكن قد نجح بعد فى تلقيح حزبه بآرائه الاستعمارية . وعلى كل حال فقد كانت الصفقة نذير الشر بالنسبة لمصر وخصوصا بسبب الدور الذى لعبه فيها بيت روتشيلد .

وسيظهر فيما بعد أن العلاقة المالية بين هذا البيت اليهودى الواسع النفوذ وبين مصر هى السبب الرئيسى فى التدخل العسكرى الانجليزى بعد مرور ست سنوات (١) .

---

(١) ظهرت منذ كتابة ذلك معلومات رسمية جديدة فيما يتعلق بشراء اسهم قناة السويس اقتضى تغيير السياق المذكور هنا بعض التغيير . اما الحقائق الاساسية الخاصة بعلاقة بيت روتشيلد ودزرائيلى فلا تزال كما اثبتناها هنا ع

وكانت لجنة « المستر كيف » التى ذهبت الى مصر بعد صفقة الاسهم مباشرة من عمل اسماعيل بلا جـــدال • وكان الغرض الذى جال فى خاطره عند طلبه هذه اللجنة أن يستمر استخدام المنجم الجديد الذى اكتشفه ، منجم المســـاعدة السياسية الانجليزية ، لعقد قروض أخرى • وتحقيقا لهـــذه الفكرة أراد الحصول على شهادة رسمية ، فى شكل تقرير ينشر على الملأ ، بأن حالته المالية لا تزال بعيدة عن الارتباك وأنه ما برح قادرا على تسديد ديونه لتفتح البورصات الاجنبية أبوابها له من جديد • فمن أجل هذا طلب اسماعيل الى الكولونيل ستاوتتون ارسال لجنة تحقيق انجليزية •

وقد أصابت مناوته قسطا كبيرا من النجاح • وكان المستر كيف الذى عينته الحكومة الانجليزية لرياسة اللجنـــة رجلا مستقيما ونزيها على ما أعتقد ولكنه نظرا لقلة خبرته بشئون الشرق كان من السهل أن يخدع • ثم انه كانت تنقصه الشجاعة اللازمة لمعالجة جميع الحقائق بالجرأة التى يتطلبها الموقف • وكان اسماعيل كسائر المبــذرين حريصـا على اخفـاء بعض حساباته عندما جاء دور الخوض فيها ، فبمساعدة اسماعيل صديق قدم للمستر كيف ميزانية خيالية لم يتردد هذا الأخير فى قبولها •

وزاد على ذلك أن ذر فى عينه الرماد فيما يتعلق بحـــالة الضنك التى كان الفلاحون يرزحون تحتها . وكان من خطته أن يحيط كبار الزوار الماليين الذين يريد ايقـــاعهم فى شراكه بمظهر الاثراء والبذخ . ولذلك قوبلت اللجنة بكل حفـــاوة وطاف بها مندوبوه الى حيث وضعت المعدات اللازمة من قبل وحيل بكل الوسائل بينها وبين رؤية عراء الأرض . وعلى ذلك كان تقرير كيف عند نشره بمثابة وصف لبعض الحقـــائق فحسب .

وأظن أنه كان فى استطاعة كيف لو أن خلقه كان أقوى مما هو أن يتشبث بالحقيقة التى كانت فى قرار كل صعوبات مصر المالية ألا وهى أن ديون اسماعيل كانت شخصية لا عمومية فى عرف العدل بل فى عرف القانون وأنها يجب أن تحل على هـــذا الاعتبار .

وكان ضعف «كيف» فى هذه النقطة بداية التدخل السياسى لمصلحة حملة الاسهم فكان تقريره حينئذ أداة لاعتبـــار ديون اسماعيل ديونا عمومية ، ومع أن السير رفرز ولسن الذى تلاه كان أقدر منه فقد كان مثله غير مدرب ولا مجرب وكان انتخابه فى ذلك الوقت راجعا على ماأعتقد الى معرفته اللغة الفرنسية . وقد عرفته حق المعرفة وعرفت كيف ، ولكن ليس الى هـــذا

الحد • وبقيت المراسلات متصلة بيني وبين الاول عدة أعـوام فوقفت على كل أعماله فى مصر •

وآخر ما أذكره من حوادث ذلك الشتاء فى القاهرة مأدبة أدبها الخديو لكيف وأعضاء لجنته دعيت لها اتفاقا • وقدأدبت فى الكشك الخديوى القائم على سفح الاهرام وكانت من المآدب الشائقة التى تعود اسماعيل أن يبهر بها عيون الاوربيين فلم يكن يعوزها شيء مما يدل على البون الشاسع بين غنى صاحبها وفقر أولئك الذين أقيمت المأدبة فى الحقيقة على حسابهم •

ومد لنا السماط على مرأى جمهـور من الفلاحين الذين يكادون يموتون جوعا والذين جاء المستر كيف لانقاذهم مـن الخراب ، ومع ذلك لم يظهر على أحدنا أنه فطن الى هـذا التناقض فأكلنا كما شئنا وشربنا أفخر الشمبانيا ومضى كل منا فى وجهته • ولم أستطع الى الآن وبعد الاحاطة بكل ما هنالك أن أدرك حقيقة الحال وما فيها من الشقاء •

الفصل الثانى

لجنه السير رفرز ولسن

لما غادرنا القاهرة فى ربيع سنة ١٨٧٦ زرنا حـــدود بلاد العرب أول مرة ، وكان السياح الاوربيون يومئذ يذهبون من مصر الى سوريا بطريق الصحراء أكثر مما يفعلون الآن . ومن ثم عدنا الى الجمال وحياة الخيام والبدو الذين حرسونا مـن السويس وعبرنا القناة وقمنا بسياحة طويلة فى شبه جزيرة سيناء الى العقبة ومن هذه الى القدس .

ولما كنا غرباء عن البلاد التى اجتزناها ولم تكن لنا معرفة باللغـــة العربيـــة ولم يكن معنا مترجم وقعت لنا حوادث خطرة تسرنا الآن ذكراها وان لم تسرنا يوم حدوثها ، منهـــا حادثة أحسب أنها تستحق الذكر وهى حادثة غريبة تتلخص فى أننا كنا نسير على شاطىء خليج العقبة المحلى فى بعض مواضعه بصخور المرجان فوقفنا نفحص ماهنالك من الالوان المختلفة بين أرجوانى وذهبى وقرمزى ونعجب بها هي والاسماك الصغيرة التى لا تحصى والتى تسكن تلك الصخور .

فبينا كنت واقفا على حافة البحر ممسكا ببندقيتى التى لم

تكن تفارقنى رأيت اضطرابا عظيما فى الماء على كثب منى ..
وقبل أن أدرك سبب هذا الاضطراب رأيت كلب بحر هائلا يترك
زملاءه ويأتى على غرة منى الى حيث وقفت فصار على بضع
ياردات منى قبل أن أدرك أى نوع من السمك هو أو أفطن
الى أنى أنا المقصود بهجومه ، ولم أكد أتمكن من رفع بندقيتى
حتى انقلب على جنبه ـ كدأب هذا النوع من السمك ـ
وأخرج نصفه من الماء لينقض على . وكان قد صار قريبا منى
فقتله الطلق الذى سددته نحوه ولم تبق حاجة لطلق آخر
يجهز عليه .

ثم استطعنا بمساعدة جرارة أن نسحبه الى الشاطىء وكان
طوله يبلغ عشرة أقدام تقريبا . ولا شك عندى فى أنه كان
يجرنى من الصخرة الى البحر لو أننى تهاونت فى شأنه . وقد
ذكرنى هذا الحادث بالخطر الذى طالما استهدف له فلاحو مصر
من التماسيح فى النيل الأعلى . وقد صرت شديد الحذر فيما
يختص بالاستحمام فى البحر من ذلك الحين .

واتفقت لنا مصاعب أخرى مع بعض الاعراب فى طريقنا لا
لشىء غير جهلنا بأحوال الصحراء وعاداتها . فلما ضربنا الخيام
فى ظاهر العقبة زارنا ابن جاد شيخ العلويين المعروف وهم فرع
من عرب الحوايات . وكان له حق حراسة السياح الى بطره

فقادنا الجهل الى اساءته فكانت النتيجة أن قمنا بلا حرس ولا دليل وليس معنا من أهل هذه المنطقة الا غلامين عربيين تبعانا من جبل سيناء ولم يعرفا شيئا عن المنطقة الشمالية • فمـــع هذين الغلامين جازفنا بالسفر شمالا الى فلسطين ومن ثم نفــد منا الماء •

وقد وجدنا الآبار التى هدانا اليها حسن الحظ جافة، وبعد معاناة أشد الصعوبات تحت شمس محرقة بلغنا حلة عربية وقد ساءت أحوالنا فى احدى الليالى الى حد أن قررنا أن نتـــرك أمتعتنا ونهيم على أحسن جمالنا لننقذ حياتنا بالوصـــول الى البقاع المأهولة اذا نحن لم نعثر على ماء حتى ظهر اليوم التالى ولكن نهيق حمار أنبأنا بأننا على مقربة من حلة قبـــل الموعد المضروب بساعة واحدة ، ثم نظرنا طفلا عربيا جاثيا على كثيب من الرمل فعلمنا منه بالاكراه والتهديد مكان النبـــع الذى يستقون منه •

وكان هذا النبع مجرى بديعا من ماء المطر يجـــرى فى تجويف الصخور • وهنا لبثنا طويلا فروينا ظمأنا وملأنا قربنــا وكان عرب العزيزية أصحاب المكان بعيدين عنه لحسن الحظ والا فانى أشك كثيرا فى أنهم كانوا يسمحون لنا بأن نأخـــذ ما شئنا من هذه « النعمة الالهية » لأنهم كانوا أصحاب المكان

وقد زرعوا الى جانب الماء حقلا من الشعير كما يفعل البدو في أكثر الأحيان على حدود سوريا معتمدين على نزول المطر . أما هذا الماء فقد أعدوه للاستسقاء على أن ينضج شعيرهم . وقد غضبوا بحق حينما عادوا فاضطررنا الى أن نقضي الليل ساهرين نترقب خوف هجومهم علينا . ولكنهم لم يظهروا الا في الصباح وقد ظهروا صارخين مهددين . على أننا كنا قد حملنا الجمال وكنا مسلحين تسليحا جيدا ، فأغذذنا السير ولم نحفل بهم ، بيد أنني بعد أن عرفت البدو خيرا مما كنت أعرفهم فلست أشك في أنه كان في استطاعتنا أن نتجنب التشاحن معهم بقليل من التفاهم وبدفع ثمن اعتدائنا على حقوقهم ، اذن لأحسنوا استقبالنا ولم يحدث بعد مكدر، أما والحال كما كانت فقد كنا على قيد أنملة من شر جدي ، ويجب أن نحمد الله على وصولنا في اليوم التالي الى الاراضي الخضراء الواقعة بين غيران وغزة حيث أحسن العرب النازلون هناك لقاءنا وحيث أنستنا صداقتهم الخطر الذي كان قد أوشك أن يحل بنا . وكان هذا آخر سياحتنا في ذلك العام فعدنا في أوائل الصيف بطريق البحر الى انجلترا .

على أننا لم نلبث أن عدنا للشرق في صيف سنة ١٨٧٧ — ١٨٧٨ ببرنامج أوسع فزرنا حلب ثم انحدرنا في الفرات الى

بغداد وعقدنا علاقات المودة أثناء عودتنا مع القبائل العربيـــة العظيمة النازلة فى صحراء سوريا والعراق • وكنا قد بدأنا نعرف قليلا من اللغة العربية ونفهم عادات العرب ولم نعد نقع فى مثل الخطأ الذى رويته آنفا •

ويعود قسط كبير من الفضل فى هذا الى النصائح الحكيمة التى زودنا بها المســتر سكين قنصـــل بريطانيا فى حلب يومئذ وقد كان واسع العلم بأساليب العرب فأفهمنا كيف تتقرب اليهم من نواحيهم النبيلة تاركين كل خوف من الركون اليهم كأصدقاء وقد وفت زوجى هذه السياحة المهمة الناجحة حقها من الوصف فى كتابها « قبائل البدو على الفرات » وهو كتاب وضعناه معا ويمكن أن يرى فيه من يعنون بالامر آرائى الأولى فيمـــا يختص بحرية العرب ، ولم يكن عطفى على العرب فى حروبهم المزمنة مع الاتراك نتيجة أية فكرة اعتنقتها قبل ذلك ولا هـــو نتيجة أية خطة سياسية ولكنه كان نتيجة ما رأيت من ســـوء معاملة الموظفين الاتراك للعرب المقيمين فى تلك البقاع ومارأيته من رفاهية القبائل المستقلة •

وكان ذلك الوقت وقت اضطرابات محلية وكانت الحرب الروسية التركيـــة فى مرحلتها الأخيرة فى القرم وبلغنـــا • ومع أن أفضل تمنياتنا كانت للجيوش الاسلامية وضد الغـــزاة

الروسيين فان منظر تعساء السوريين والعراقيين اذ يجنـــدون ويساقون فى الاغلال الى شاطىء البحر أثار غضبنا على الحكومة التركية وهو غضب قواه ما كان يظهره العرب كل يوم مـــن بغض الاتراك .

ولم يكن فى طاقة أى انسان يقدر الجريمة الا أن يستشعر مثل هذا الغضب اذ يرى سوء حكم الاتراك لولاياتهم العربية .

وهنا وصف المستر بلنت أحوال الولايات العربيـة تحت الحكم العرفى الى أن قال :

ولما عدت الى انجلترا فى مايو سنة ١٨٧٨ أخذنى ابن عمى فيليب كارى الذى كان سكرتير لورد سلسبرى الخاص وأحد كبار الموظفين ذوى النفوذ فى وزارة الخـارجية الى اللـورد سلسلبرى ، وكان هذا قد تسلم مقاليد وزارة الخارجية حديثا وكان يوشك أن يوقع المعاهدة السرية التى عقدها مع سلطان تركيا ـ وهى الشهيرة باسم معاهدة قبرص ـ ولم يكن لى علم بشىء من هذا فى ذلك الحين . فأثارت سياحتى فى قلب الولايات العربية اهتمام اللورد وأراد أن يعرف منى شيئا عن حقيقتها . وقد أجبت عن أسئلته فأدليت اليه بكل آرائى بصراحة تامـة وأذكر الآن بصفة خاصة ماقلته له عن احتمال استقلال سوريا ذات يوم وأنها قد تتحالف مع مصر ضد ظلم الحكومة التركية

فلم يجب عن هذه الأقوال بسوى قوله : انه لا توجد رابطة سياسية بين هاتين الولايتين التركيتين وأن لكل منهما أحوالا ونظاما خاصا • وقد ظهر عليه التأثر بكلامى حين طعنت فى مشروع السكة الحديدية فى وادى الفرات وكنت أرى فى هذا المشروع خطرا جديدا على استقلال الولايات العربية • وقد علمت فيما بعد أنه اقتنع كثيرا بما أدليت به من الحجج فى هذا الصدد وأن وزارته لم تؤيد ذلك المشروع بعد حديثى معه فلم ينفذ الى اليوم •

على أن حديثى مع اللورد سلسبرى فى هذه الفرصة أقنعنى من ناحية أخرى بسعة اطلاعه فى الشئون الشرقية • ومع أن آراءه لم تكن تتفق مع آرائى فى هذا الصدد فاننى كنت واثقا من كفاءته الشخصية وقد توثقت بينى وبينه بعد ذلك أواصر صداقة هى وان تكن غير صميمة الا أنها كانت ودية • وقد سمح لى أن أكتب له فى هذه الشئون الى النهاية ، ومع أنه لم يوافق على آرائى الا نادراً فقد كان دائما يرد على خطاباتى بلطف أكثر مما تقتضيه التقاليد الرسمية •

على أن الخطة التى انتهجها اللورد سلسبرى صيف ذلك العام ببرلين لم تلبث أن بددت كل ما عقدته من الآمال على

اقناعه بآرائى فيما يختص بالعرب فقد أعلن يومئذ أنه يضمن للسلطان سلامة كل ممتلكاته الاسيوية •

ولما كانت مداولات مؤتمر برلين السرية قد أثرت فى أحوال مصر تأثيرا غريبا مهما فى الوقت نفسه فلست أجد مندوحة من أن أروى حكايتها هنا وقد عرفت حوادثها عقب وقوعها مباشرة •

ويذكر القراء أن شتاء سنة ١٨٧٧ ــ ١٨٧٨ الفظيع شهد آخر مراحل الحرب بين روسيا وتركيا ، وأن ربيع العام التالى رأى جيوش القيصر على أبواب الاستانة • وقد كان هذا العهد عهد شقاء عظيم فى مصر • وكانت لجنة كيف التى شهدت وصولها الى القاهرة قد تبعتها لجان مالية أقل منها نزاهة وطهارة ذمة • وقد انتهى ذلك كله بالاتفاق المعروف باتفاق « غوشن وجوبير » الذى سويت على مقتضاه ديون الخديو• وفى الحق أنها تسوية جبارة وضعت سبعة ملايين جنيه على عاتق الايرادات المصرية •

ولم يكن الحصول على هذا المبلغ الجسيم من الفلاحين المفلسين ممكنا الا باكراههم تحت الكرباج على ارتهان أراضيهم للمرابين اليونانيين الذين كانوا يرافقون جباة الضرائب فى كل مكان أثناء مرورهم فى القرى • وكان الفيضان فى السنتين

الاخيرتين قد جاء شديدا جدا وأصيبت البلاد بالقحط فيما بين البحر وأسوان ، وقد قضى كثير من أهل القرى رجالا ونساء وأطفالا ـ جوعا ـ فى شتاء ذلك العام الذى لم يمر مثيل له من أول القرن .

وكان واضحا والحالة هذه أنه اما أن يفلس الخديو أو يخفض فوائد ديونه بعد اذ أهملت تسوية « غوشن وجوبير » وقد كان الحل الاول أعدل الحلين وأفضلهما لخير البلاد ، ولكنه أهمل كرامة لمصلحة حملة الاسهم الاجانب . وقام هؤلاء بجهد نهائى نجح فى هذه المرة لحمل الدول العظمى على التدخل السياسى للوصول الى تسوية أخرى بين اسماعيل ودائنيه ، وكانت الفرصة ملائمة فيما يخص انجلترا لاتفاق حدوثها فى الوقت الذى عقد فيه الانجليز نيتهم بارشاددزرائيلى على القيام بلعبة سياسية جريئة تمثل دورا هاما فى شئون الامبراطورية التركية ، وكان لورد دربى قد تخلف عن رئيسه بعد أن قطع معه وعلى الرغم منه شوطا فى سياسته الاستعمارية الجديدة .

وقد استقال لورد دربى فعلا من وزارة الخارجية وخلفه فيها لورد سلسبرى كما مر بك . وقد كان ذلك دليلا على تقدم سياسى عام غير خال من التحدى والتهديد

وقد أدخل الاسطول البريطانى الى بحر مرمرة فرعب الجيش الروسى ومنع من دخول الاستانة ووضعت الحرب أوزارها بعقد معاهدة بين السلطان والقيصر تحت ضغط هذه المظاهرة الانجليزية وهى معاهدة « سان استفانو » أما من ناحية مصر فقد ألفت فى الوقت نفسه لجنة تحقيق دولية بالاسم وانجليزية فى الحقيقة وعين فيها صديقى السير رفرز ولسن ممثلا لانجلترا وأحسب أن أمر تعيينه هو أول امر وقعه لورد سلسبرى عند استلامه مقاليد وزارة الخارجية فى دوننج ستريت .

ولا يغيب عن الذاكرة أيضا انه لم يمض شهران على ذلك حتى عقدت معاهدة سرية فى الاستانة ، عقدها السير هنرى لايارد وهو رجل عظيم الكفاية والدراية بالشرق وكان قد أحرز ثقة السلطان الشاب عبد الحميد .

وقضت هذه المعاهدة بتأجير جزيرة قبرص لانجلترا وأعطى ضمان للسلطان بسلامة ممتلكاته الاسيوية فى مقابل وعده بادخال اصلاحات فى آسيا الصغرى لوجود قناصل بريطانيين متنقلين وهم ضباط يقدمون النصائح ويقدمون التقارير بالتقصير والشكاوى .

وكانت فكرة معاهدة قبرص فى اعتبار دزرائيلى وسلسبرى اللذين وقعاها ولايارد الذى هو منشئها الحقيقى ترمى لتأسيس

حماية بريطانية على آسيا الصغرى وهى وان تكن غير رسمية الا أنها لا تقل فى مفعولها عن الحماية الرسمية • وكان الحصول على قبرص فى نظرهم أقل أجزاء الصفقة •

وكانت هذه الجزيرة قليلة الاهمية فى الحقيقة بالنسبة لبريطانيا ، كمركز عسكرى ، ولم يكن اختيار هذه الجزيرة يرجع الى صلاحيتها من الوجهة العسكرية بل الى لوثة من لوثات دزرائيلى أثارها تقرير دورى عن ثروتها أرسله اليه قنصل بريطانى ذو مصلحة فى الجزيرة •

وكان دزرائيلى قد وضع فى سياسته قبل ذلك ببضع سنوات رواية « تانكرد » التى عرض فيها مازحا فكرة انشاء امبراطورية أسيوية تحت الحكم البريطانى وعنى بادماج قبرص فيها بصفة خاصة معيدا بهذه الحقيقة التاريخ ، فان الملك الانجليزى رتشارد قلب الاسد كان يوما من الايام ملكا على هذه الجزيرة •

وقد كانت المسألة فكاهة سياسية ولكن دزرائيلى كان يحب أن يقلب فكاهاته السياسية الى حقائق ويقنع أنصاره الانجليز الذين كان يحتقرهم كيهودى بسداد أعماله الخرافية واحكامها • وكان غرض لايارد الحقيقى من عقد المعاهدة هو التحكم فى آسيا الصغرى من الوجهة العسكرية وهو الغرض

الذى ظن ادراكه سهلا بواسطة القناصل البريطانيين المتنقلين والواقع أن هذا الغرض يمكن عزوه الى لايارد أكثر من عزوه الى سلسبرى الذى كان جديدا فى وزارة الخارجية والذى أكسبته تجاريبه فى العام السابق فى الاستانة عطفا على الاتراك •

وكان على هؤلاء القناصل أن يشرفوا على الادارة المدنية فى الولايات ويتأكدوا من أن جباة الضرائب لا ينهبون الفلاحين وأن ميادين تدريب الجيوش التركية ليست مزدحمة بسبب سوء الادارة •

ومن ثم ظن بأن زحف روسيا على البحر الابيض قد يقف عند آسيا الصغرى كما وقف زحفها فى أوربا عند سان استفانو •

واذا نحن أنعمنا نظرنا اليوم فى الموقف ولا سيما بعد العلم بما تلا ذلك من الحوادث والوقوف على طبائع السلطان عبد الحميد فليس فى وسعنا الا الدهش من أن يوقع السلطان عبد الحميد معاهدة كهذه لو نفذت لوضعت تركيا آسيا فى الأيدى العسكرية البريطانية كما هى حال مصر اليوم •

كذلك يدهش المرء من توقع وزارة الخارجية البريطانية نجاح تلك المعاهدة ويلوح له أن اللقب الذى أطلقه عليها غلادستون « بأنها معاهدة مجنونة » كان فى محله على أنه لا

يجوز لنا أن ننسى أن السلطان عبد الحميد لم يكن مخيرا مع وجود الجيش الروسى على أبواب عاصمته فقد كان مضطرا لقبول التحالف البريطانى ولو كان معناه الوصاية وقد كانت انجلترا الى ذلك الحين أقامت الحجة على أنها صديق نزيه يعتمد عليه .

وكان لايارد على بينة من قوة نفوذه فى القصر كما أنه كان يعرف ما لاسم بريطانيا من الهيبة فى الولايات الاسيوية . وكان للقنصل البريطانى فى تلك الايام نفوذ تام على ولاة الاتراك وسائر الموظفين منهم وكان له أن يعتقد أن نفوذه لن يكون له آخر .

والواقع أن الشرف البريطانى كان يومئذ عظيما فى نظر الاتراك وكانت السياسة البريطانية مشبعة بالعطف على المسلمين حتى انه لم تختلج فى صدورهم أية شبهة فى أن لانجلترا مقاصد أنانية . وكان لايارد نفسه حسن الظن بالأتراك وربما كانت له آمال فى أن يلعب فى قصر يلدز الدور الذى لعبه لورد كرومر فى عابدين ، وعندى أنه من المدهش أن يغامر البريطانيون فى أحلام كهذه أو أن يثق المسلمون بنزاهة بريطانيا .

وأخيرا يجب أن نذكر انه بعد توقيع المعاهدة السرية بشهر واحد اجتمع المؤتمر الاوربى العظيم فى برلين ، وقد اجتمع بناء

على رغبة دزرائيلى وكان المفهوم أن يكون أعظم اجتماع أوربى منذ مؤتمر باريس • وكان غرض هذا المؤتمر كغرض سابقه تقرير مصير تركيا أوربا ورعاياها المسيحيين وتعديل معاهدة سان استفانو •

وقد علق دزرائيلى نجاحه كرجل سياسى على نجاح المؤتمر فى ذلك • فقد تدخلت انجلترا بدافع سام كأفضل صديق لتركيا منزهة عن الغرض على قول دزرائيلى وأصبح مقامه السياسى فى انجلترا وفى الخارج معلقا على مصادقة الدول على مزاعمه فى هذا الصدد •

وكان نجاح المؤتمر ضروريا لدزرائيلى الى حد أن ذهب اليه بنفسه كرئيس للمفوضين البريطانيين وأخذ سلسبرى الذى كان الى ذلك الحين حديث عهد بالسياسة بينما مثل روسيا « غورتشاكوف » ومثل فرنسا وادنجتون وايطاليا الكونت كورتى وتولى البرنس بسمارك رئاسة هذه الهيئة الضخمة وقد رافق كورى لورد سلسبرى كما رافق بروتون دزرائيلى •

ولا حاجة بى لوصف اجراءات المؤتمر العامة فهى معروفة للجميع ولكن الذى لم يذع قط من قبل هو هذا الحادث الهام الذى عرفته ـ كما سيأتى ـ بعد حدوثه بزمن قصير •

اجتمع المؤتمر يوم ١٣ يونية وكانت الأمور المطروحة على

بساط البحث على أعظم جانب من الاهمية . ولم يكن ثمة بين المفوضين الا قليل من الشبه فيما يتعلق بامكان تقسيم تركيا فاقترح بعضهم من أول الأمر أن يعلم كل مفوض بادىء ذى بدء أنه حضر الى المؤتمر غير مقيد بتعهدا تسابقة فيما يختص بالمسائل المعروضة للبحث .

وقد فوجىء دزرائيلى وسلسبرى بهذا الاقتراح ولم يكونا على استعداد للافضاء بأعمالهما السرية مع سلطان تركيا غير أنهما لم يكن لهما من حضور الذهن ما يقويهما على رفضه فقبلاه كغيرهما بصفة رسمية .

وقد كان كلاهما حديثى عهد بالسياسة كما أسلفنا ، ومن هنا يمكننا أن نصور جسامة الدهش وفداحة الفضيحة اللذين ثارا بعد بضعةأسابيع فىبرلين حينشرت احدى صحف المساء فى لندن يوم ٩ يونية نصوص المعاهدة السرية ، وكان كورى قد استخدم رجلا يدعى « مارفن » تعود السياحة فى الشرق وعرف لغاته فى ترجمة النص التركى .

ولم يكن مارفن هذا موظفا فى وزارة الخارجية فكان من جراء الطيش فى استخدامه أن باع السر بمبلغ كبير الى جريدة « جلوب » فانقض نشر المعاهدة انقضاض الصاعقة على المفوضين

لبريطانيين فى برلين ومع أن سلطات لندن نفت صـــحة النص المنشور فقد كان فوق الطاقة كتمان الحقيقة طويلا فى برلين •

وأصبح مفوضونا فى برلين أمام حقيقة لا يمكن تأويلها وهى أنهم خانوا عهد زملائهم الاوربيين خيانة جسيمة واتهموا بكذب صريح مكتوب ومسجل عليهم • وقد هدد ظهور السر مؤتمـــر برلين بالاخفاق بل بالانفضاض العاجل •

وقد أعلن البرنس غورتشاكوف أنه أهين وشاركه فى غضبه وادنجتون وهدد كلاهما بالانسحاب من المؤتمر، وأخذ وادنجتون يحزم أمتعته استعدادا للسفر من برلين •

وكان الموقف حرجا ولم تنقذه الا خدمات بسمارك المشوبة بالتهكم •

• وكان قد أعجب بدزرائيلى وعطف عليه لمشابهة بينهما فى خلتى التهكم والجرأة • واستطاع كوسيط أمين أن يوفق بين مفوضى فرنسا وانجلترا على القواعد الآتية :

١ ــ أن يسمح لفرنسا عند أول فرصة وبغير معارضة من جانب بريطانيا أن تحتل تونس كتعويض عن حصول بريطانيا على قبرص •

٢ ــ أن يكون حظ فرنسا كحظ انجلترا فى التسويات المالية التى تتم فى مصر

٣ ـ أن تعترف انجلترا بزعم فرنسا القديم فى أن لها حق حماية المسيحيين اللاتينيين فى سوريا وعلى قاعدة تسليم دزرائيلى فى هذه النقط الثلاث، وقبل وادنجتون البقاء فى برلين والاشتراك مع سائر المفوضين فى تسوية مسائل البلقان التى تمت على قواعد الاقتراحات البريطانية تقريبا ، ومن العريب أن الثمن الذى دفعه دزرائيلى الى فرنسا وهو ولاية من ولايات حليفه السلطان مكنه من أن يعود بعد قليل الى لندن ويدعى الفوز والانتصار مفاخرا بأنه عاد يحمل « الشرف والسلام » .

وعندى أن هذا الحادث العجيب يجب أن يعتبر مبدأ نبذ بريطانيا تقاليدها السياسية المجيدة فى الشرق واتباعها سياسة نهب وخيانة ، والى دسيسة قبرص هذه يرجع مباشرة أو غير مباشرة نصف الجرائم التى ارتكبت ضد حرية الشرق وشمال افريقيا وهى الجرائم التى شهدها جلينا الحاضر ، وهى التى ألقت فى روع النمسا فكرة ضم البوسنة فى الحال ، وهى التى ساعدت على اخفاق تسوية صحيحة فى مقدونيا ، وهى التى وضعت تونس تحت أقدام فرنسا ، وبدأت عهد تقسيم افريقيا بين الدول الاوربية وما يتبع ذلك من شتى المخاوف والنكبات التى حاقت بالوطنيين من بيزرتا الى بحيرة تشاد ومن الصومال الى الكونغو وفوق هذا كله أفقدت بريطانيا سمعتها الى الابد

فى الامبراطورية العثمانية وغيرت قلوب المسلمين عليها فى عامى ١٨٨١ و ١٨٨٢ وكانت عاملا مهما فى الحوادث العنيفة التى حدثت فى مصر فى تلك الاوقات المضطربة كما سأبين بعد • ثم انها هزمت نفس الغرض الذى رمت اليه فى تركية آسيا ان كان ذلك الغرض المعاونة حقا على ادخال الاصلاح •

وقد لفت عمال المؤتمر نظر السلطان الى الخطر الذى يكمن فى المعاونة البريطانية وغيروا قلبه فاتبع سياسة مناقضة للنصائح البريطانية وقد نجح فى سياسته هذه نجاحا تاما وقمع دعاة الحرية والحكومة الذاتية بين رعاياه والى هذا السبب تعزى المظالم التى نكب بها الاحرار فى الاستانة وليس من المبالغة فى شىء أن نعزى له النكبات التى حاقت بالارمن بعد ما أثار فيهم المفوضون البريطانيون فى برلين آمالا كبارا وأوهموهم بأنها تتحقق بمساعدة بريطانيا الادبية ـ تلك المساعدة التى لم تكن احوال السياسة البريطانية غير الأدبية تسمح لبريطانيا بتقديمها •

أما النتيجة المباشرة للاتفاق مع وادنجتون فيما يختص بمصر فكانت ارسال تلغراف من برلين الى ولسن فى الاسكندرية يتضمن أمرا شديدا أحزنه وأدهشه وهو أن يكون حظ فرنسا كحظ انجلترا تماما فى جميع التعيينات المالية ذات العلاقة بتحقيقه الرسمى •

ومع أن ولسن لم يعرف الحقيقة فى ذلك الحين فقد كان هذا سبب المراقبة الثنائية (١) ــ الانجليزية الفرنسية ــ التى وضعت على المسألة المصرية ــ بعد مرور عام على هذه الحوادث كانت الاحوال سائرة على هذا المنوال حين وجدت نفسى فى خريف السنة ذاتها ــ سنة ١٨٧٨ على طريقى للشرق • وكانت سياحتى فى الشتاء السابق الى بغداد • والنجاح الذى أدركته كان فى مسألة أهم لدى كثيرا من السياسة ، وهى شراء الخيول العربية التى كونت نواة اسطبلى المعروف اليوم جيدا فى « كرابت » ــ والذى أثار الفضول والتعجب فى انجلترا • ومن ثم قضيت الصيف فى اعداد جريدة امرأتى وتقديمها للمطبعة •

وكنا على كل حال قانعين بهذا وقد عقدنا النية على سياحة

---

(١) رويت حكاية ما حدث مع وادنجتون كما سمعتها من لورد ليتون فى سملا فى مايو سنة ١٨٧٩ • وكانت التفصيلات مدونة فى خطاب أطلعنى عليه • وقد كتب اليه من برلين حين كان المؤتمر يعقد جلساته • أما الذى كتبه له فزميل سياسى وقد تأكدت صحة هذه الحوادث من أكثر من مصدر وان لم تتفق جميع المصادر على تفصيلاتها بالدقة • أما فيما يختص بالنقطة الجوهرية فى الاتفاق وهى الخاصة بتونس فقد وقفنى على تفصيلاتها الكونت كورتى فى سنة ١٨٨٤ وكان ممثل ايطاليا فى المؤتمر• ويؤخذ مما قاله لى ان دهش دزرائيلى الناجم من نشر نص المعاهدة السرية كان من الشدة بحيث مرض ولزم غرفته ولم يظهر فى جلسات المؤتمر اربعة أيام متوالية تاركا لورد سلسبرى يؤول المسألة على أحسن ما يستطيع • وقال لى ان المفاوضات لم تقطع بصراحة بين دزرائيلى ووادنجتون وان هذا عرض المسألة على زملائه الفرنسيين الذين اتفقوا على ان المسألة من المسائل التى لا يتنازع فيها علنا وقالوا «اما الحرب او السكوت» وجرى الاتفاق شفويا بين وادنجتون وسلسبرى ولكنه مسجل فى الغراف كتبه سفير فرنسا فى لندن الى لورد سلسبرى وذكره فيه بالمحادثات التى دارت فى برلين وبذلك ضمن الاعتراف بهذه المحادثات كتابة •

أشد مجازفة مما حاولنا فى الماضى وقصدنا دمشق التى رسمنا الابتداء منها واختراق الصحراء العربية الوسطى وزيارة نجد وطن الجياد العربية .

وكانت سياحتنا البحرية من مرسيليا تمر بنا على الاسكندرية واتفق أن وجدت على ظهر الباخرة فى مرسيليا صديقى السير ريفرز ولسن الذى عين حديثا وزيرا للمالية المصرية وقضيت السياحة فى صحبته . وقد استطعت فى خلال أيام السياحة الستة أن أقف منه على كل ما حدث فى القاهرة أثناء العامين الفارطين وكانت الحكاية التى رواها لى رهيبة جدا . ومن بين الحوادث التى رواها حادثة وفاة اسماعيل صديق المفتش وما غرسته فى القلوب من النفور .

كان اسماعيل صديق جزائرى المولد وقد جاء الى مصر فى شبابه الاول وارتفع بمواهبه وكفاءته فى الخدمة المصرية . وكانت أول علاقة له بالبلاط على ما أعتقد فى عهد عباس الاول كمسير للركائب . وشغل فى عهد عباس واسماعيل وظائف كثيرة حتى انتهى أمره كما رأينا بأن صار « شيطان اسماعيل » فى ابتزاز مال الفلاحين .

وقد استطاع أن يحتفظ بحسن السمعة فى القاهرة على الرغم مما ارتكبه من أعمال القسوة — وقد أظهر براعة لا تنضب فى

ابتـكار طـرق النهب ـ وكان فحوى ما سمعته فى القاهرة انه عربى متمتع بفضيلة تقليدية هى الكرم والسخاء فى انفاق الثروة العظيمة التى جمعها • ومن ثم لم يكن مكروها فى مصر • وقد شغل منصب وزير المالية فى السنوات الاخيرة من حياته فبرهن دائما على أنه خادم اسماعيل المخلص الأمين • ولـكن الحظ خانه قبل بضعة أشهر من الوقت الذى أكتب فيه عنه •

وهنا يروى المستر بلنت حكاية وفاة اسماعيل باشا المفتش كما سمعها من السير رفرز ولسن ثم قال : وقد خضت أنا وولسن فى هذه الاحاديث يوما بعد يوم على الباخرة ودارت بصـفة خاصة حول مهمته الخطيرة فقد كان مزمعا أن يخلف اسماعيل باشا المفتش فى وزارة المالية • وكانت آماله فى نجـاح ادارته عظيمة فى ذلك الحين وقد أعرب عن فهم تام للمهمة الخطيرة التى أخذها على عاتقه وهى اعادة مالية مصر سـيرتها الاولى من الرفاهية وانقاذ الفلاحين من أصفادهم المالية ولكنه كان كذلك على علم تام بما يواجهه من الصعوبات •

وكان قد تعلم فهم أخلاق الخديو وأساليبه كما كان مستعدا لأن يجد فيه خصما قويا جريئا ولكنه كان يعتمد على براعته فى التودد وسعة علمه بأمور الدنيا مؤملا أن يستطيع اسـتبقاء

العلاقات الودية مع اسماعيل وأن يتجنب كل الاخطار الشخصية التى قد تعرض له •

وكان يعتمد فى تحقيق هذا الغرض على تربيته الفرنسية فقد طالت سكناه فى باريس الى الحد الذى جعله يثق بقدرته على الاحتفاظ بسلامة الوزارة الفرنسية الانجليزية التى كان عضوا فيها ثم انه كان يعتمد كثيرا على نوبار باشا ويثق به ثقة لاحد لها معتقدا أنه سياسى شرقى مخلص للمصالح البريطانية •

وكان يعتقد كذلك أن وزارة الخارجية البريطانية تؤيده كل التأييد وهناك تأييد آخر ربما كان أقوى فى أوربا من تأييد وزارة الخارجية وهو تأييد مصرف روتشلد •

وكان يعرف أنه يستطيع أن يعتمد على هذا التأييد بعد نجاحه أثناء مروره بباريس فى اقناع ولاة أمور ذلك المصرف باصدار قرض بتسعة ملايين جنيه بضمانة الممتلكات الخديوية ، وقد كان من شأن هذا القرض أن يكسب تأييد أصحاب المصرف لحملة الاسهم فى مطالبتهم بالتدخل الاوربى متى اقتضت الحال • وقد خيل لى ـ أنا الذى أعرف، ولسن حق المعرفة ومع أنى عطفت أشد العطف على آماله الانسانية وأمانيه الشخصية ـ أن فى مركزه عناصر معينة من الشك ليس من شأنها أن تساعد على نجاحه •

وقد افترقنا فى الاسكندرية ونحن نرجى أن تستقيم له الامور فى مهمة تدور حول يأس حكومة مفلسة تملأ صدورنا بالشكوك ، بيد أننا توقعنا أن يقوم فى سبيله كثير من الصعوبات الشديدة .

ومع أنى كنت واثقا من جرأة قلبه وحدة ذهنه فقد خشيت عليه وحققت الايام أنى كنت على حق فى التشاؤم وحدث هذا فى وقت أقصر مما ظننا .

وقد كان لاخفاق السير رفرز ولسن فى ادارته المالية القصيرة عدة أسباب ، منها شؤم ذلك القرض الباهظ الذى يشق على المرء أن يدرك فى أى غرض جدى استخدمت أمواله . ومنها حدوث أخطاء فى الادارة أوقعت مظالم فادحة بالاهلين ومهدت السبيل ــ كما سنرى بعد ــ الى شيوع الاستياء والتذمر . على أنى لست بحاجة الى الدخول فى تفصيلات هذه الاخطاء فهى مشهورة وفى طاقة كل انسان أن يجدها فى الكتب . أما عذر ولسن فيها فهو أنه اعتمد اعتمادا لا حد له على ارشادات نوبار فى جميع شئون السياسة الداخلية وفى تجاوزه الحد فى تقدير كفاية نوبار على تصريفها . ولو كان ولسن سياسيا أكثر مما كان ماليا لما سقط سقطته فى المصاعب السياسية التى كان يسهل تجنبها لو كان خبيرا بأساليب الحكومة .

ولم يكن نوبار الا تكأة مرضوضة ولم يكن يشق على داهية كاسماعيل أن يثير ضده الشعور الاسلامى كمسيحى وأجنبى • واذ كان ولسن يفكر فى ايجاد التوازن المالى فقد خفض مرتبات جماعة من الموظفين المصريين وهكذا خلق طبقة مستاءة أتاحت للخديو فرصة تحويل الاستياء منه الى وزرائه المسيحيين • وسهل عليه الامر أنه لم يحصل تخفيض فى مرتبات الموظفين الاجانب • وكان الاتفاق الذى عقد بين فرنسا وانجلترا فى برلين يحتم تعيين موظف فرنسى نظير كل موظف بريطانى ومن ثم لم يجرؤ ولسن على أن يمس أحدا من الموظفين الفرنسيين • وكان على ولسن أن يحمل كل ما أثار تصرفه من البغض وفى يده مفاتيح الخزانة المصرية •

ولم يدرك كذلك أقل نجاح ـ رغم نياته الحسنة ـ فى تخفيف العبء عن كواهل الفلاحين • وقد كان فى برنامجه أن يبقى الخديو قادرا على الدفع ومعنى ذلك أن تدفع فوائد الدين الجسيم فى مواعيدها • وقد أنفقت الملايين التسعة التى اقترضت من روتشلد فى المطالب الهامة ولم تخفض الضرائب بل استمر حكم الكرباج بصرامة أشد فى القرى وجيء للموقف الزراعى بعامل مرعب جديد هو مسح الاراضى الزراعية تحت الاشراف البريطانى وقد تم ذلك بنفقات فادحة وعلى أسوأ

منوال واعتبره الناس على وجه العموم مقدمة لعرض ضرائب جديدة وتم الفشل أخيرا بعد ذيوع الاقتراح الذى عرضه ولسن وهو يقضى بمصادرة أراض تبلغ قيمتها خمسة عشرمليونا فقد أوقع هذا المشروع عقول أصحاب الاراضى فى اضطراب وجعلهم يعتقدون بقرب وقوع نكبات على يدى الوزيرالبريطانى أفدح من التى نزلت بهم فى عهد أسلافه •

وعندى وقد عرفت مصر الآن معرفة حقيقية أنه لم تكن هناك مندوحة من وقوع أى انسان له مثل ذكاء ولسن وحسن مقاصده فى مثل هذه الاخطاء •

وليس عندى من شك فى أن الخديو نفسه زين له الكثير منها ليورطه • وبلغ سوء سياسة ولسن ونوبار القمة حين أخذا يسرحان الجيش المصرى وفيه ٢٥٠٠ ضابط بغير أن يدفعا المرتبات المتأخرة فقد أوقع ذلك الوزراء الأجانب فى قبضة اسماعيل وهذه فرصة لم يتردد اسماعيل فى انتهازها •

ويجب أن أقص هنا تاريخ أزمة فبرايرسنة ١٨٧٩ التى طاحت بوزارة ولسن ونوبار كما حدثت ، اذ من الصعب أن يجد الانسان حقيقتها منشورة فى كتاب آخر •

كان الخديو كما ذكرنا. تواقا لتحويل البغض العام الذى كان يوجه اليه فى مصر الى وزرائه الجدد لرغبته فى تخليص

لنفسه من وصايتهم • وكان قد نزل بمنشور يسمى دكريتو سنة ١٨٧٨ عن ادارة المالية والادارة لهم ولما كان قد تعود الحكم المطلق ١٨ سنة فى مصر فقد غاظه فقدان هذه السلطة •

وكان قد وقع الدكريتو كبديل من الافلاس فلما نجا من الافلاس صمم على نقض عهده، واذ كان داهية فى البصر بالاخلاق تفطن حالا الى موضع الضعف فى الوزارة وعرف كيف أفضى جهل ولسن وزميله الفرنسى بلنيير بالشئون المصرية الى اعتمادهما كل الاعتماد على نوبار فى الاهتداء الى الخطة التى يسلكانها كما عرف أيضا عجز نوبار كمسيحى عن حكم شعب اسلامى •

وكانت طبقة الموظفين المسلمين تعد نوبار أفاقا أرمنيا جمع ثروة كبيرة من سمسرته لأصحاب الاموال المستعدين لاعطاء القروض على حساب الجمهور • أما الفلاحون فكانوا يعرفون فيه الرجل الذى أنشأ المحاكم المختلطة التى يمجدها الاجانب ويمقتها الفلاحون لاعتقادهم أنها وضعتهم فى قبضة المرابين اليونانيين وفعلت ما لم تفعله هيئة غيرها •

وكانت هيئة هذه المحاكم فى ذلك الحين تستدعى أى فلاح أمضى أية ورقة بسلفة أمام قضاة أجانب وبعد اجراءات اجنبية لم يتعودها وبلغة أجنبية لا يفهمها ، وبغير أن تسنح له فرصة

الدفاع عن نفسه ان كان فقيرا ، واقامة الحجة على أن الارقام قد غيرت أو أن الورقة كلها مزورة تحكم عليه بماقد لايقل عن تجريده من كل ما يمتلكه قبل أن يتسع له الوقت ليعرف بأى شيء هو فى الحقيقة مطالب . بهذا كان يعرف نوبار ثم انه لم يكن له أنصار وطنيون ولا كان مؤيدا بأى رأى الا رأى التجار الاجانب فى الاسكندرية . ومن ثم رأى اسماعيل كيف يمكنه الهجوم على نظام الحكم الجديد فى شخص نوبار وكيف يمكن جعله عاجزا .

والواقع أنه لم يكن يقتضى لاسقاط هذا الحكم الامظاهرة وطنية ضد المسيحى الممقوت وقد سهل تنفيذ هذه الخطة بما حدث من غش ضباط الجيش المسرحين وحرمانهم من المرتبات المتأخرة وحقوق المعاش .

وكان عميلا اسماعيل فى احداث أزمة فبراير جاهين باشا أحد موظفى البلاط وأخو زوجة لطيف افندى سليم الذى سهل له العمل مركزه كمدير للمدرسة الحربية ، وقد نظم هذان مظاهرة من تلاميذ المدرسة فسار هؤلاء فى الوقت المعين فى شوارع القاهرة معلنين أنهم سيطالبون باسقاط الوزارة الممقوتة ثم انضم اليهم جمهور كبير يتقدمهم الضباط المسرحون وكان الاتفاق معقودا على أن تصل المظاهرة الى ديوان الحكومة فى الوقت الذى ينصرف فيه الوزراء .

وقد وجد المتظاهرون نوبار باشا يركب مركبته فأهانوه واعتدوا عليه وجذبوا شواربه وضربوه بالأكف .

ثم قامت فى الحال مظاهرة شعبية وهنا ظهرت فى الميدان فرقة الحرس الخديو الاولى بقيادة القائمقام على بك فهمى وكانت على قدم الاستعداد ثم ظهر الخديو بالذات وأطلقت بضع طلقات فى الهواء فوق رءوس المتظاهرين ثم تفرق الجمهور حين أمره الخديو بأن ينصرف كل الى بيته .

وهكذا نجحت الخطة التى اتفق عليها مع على بك واستطاع الخديو أن يقنع قنصلى فرنسا وانجلترا بضرورة اقالة نوبار وأنه لولا تدخله القوى وسلطانه على الناس لحدثت أمور سيئة العقبى وعلى ذلك نصح القنصلان لنوبار بالاستقالة وحل محله موظف مسلم اختاره الخديو يدعى راغب باشا . وقد عرف اسماعيل أن وجود رجله راغب فى وزارة الداخلية يعجز ولسن وبلنبير عن ادارة البلاد ويستتبع سقوطهما عاجلا .

وبعد أن تم النجاح فى التخلص من نوبار أصبح قيام ولسن بادارة المالية مستحيلا كما توقع الخديو ثم عجلت حوادث أخرى بسقوطه . وكان قد وقع جفاء بين ولسن وقنصلنا فى مصر حينذاك ــ المستر فيفيان الذى صار بعد ذلك لورد فيفيان وعين سفيرا فى رومة ــ بسبب مشاحنة شخصية . فلما طرأت

الصعوبات السياسية وطلب ولسن تأييده لم يقدمه له أو قدمه بغير اخلاص .

ولكن فشل ولسن النهائى لم يبطىء بعد ذلك . فقد نظمت حادثة كحادثة فبراير خلال شهر مارس فى الاسكندرية اذ آذاه الجمهور هو وزوجته فلما رفع شكواه لوزارة الخارجية ضنت عليه بالتأييد الكافى لنيل الترضية. ثم نصح له كما نصح لنوبار بالاستقالة ولما لم يجد مناصا استقال وعاد الى أوربا .

وقد كتب لى خطابا هاما فى ذلك الحين ، كتب الى فى ٣٠ ابريل سنة ١٨٧٩ يقول :

« أحسب أنك سمعت بما كاد لى الخديو ، انه لم يقتلنى كما قد تظن ولكنى هوجمت فى الطريق واسيئت معاملتى وقد حصل الآن على عرضه وتخلص منى فقد تركتنى حكومة جلالة الملك تحت رحمة القضاء جريا على عادتها من الاهتمام بوكلائها. ان فيفيان هو العامل الرئيسى فى سقوط التدبيرات التى كان عليه أن يتولى حمايتها ويرجع ذلك الى غيرته منى والى نقص فى الذكاء وزيادة فى الخيلاء فقد انضم الى الخديو . ومع أن سموه لم يجد أساليب الحكم أكثر من اجادته التفريق بين الذين يعمل معهم فقد كان يتطلع الى التفريق بينى وبين بلنبير أو بيننا وبين نوبار . ولكنه لم يتوقع حتى ولا فى الحلم أن يصير القنصل

البريطانى أداة فى يده لاسقاط وزارة فرضتها عليه حكومة بريطانيا وأكرهته على قبولها .. سنبحر يوم ٦ ونصل لندن يوم ١٥ ، وأنا الآن مسرور لتخلصى من المسألة كلها فهى سائرة الى الدمار والبلاد موبوءة بالفساد . ويلوح لى أن حكومتى فرنسا وانجلترا تخشيان العمل وقد طغى الخديو وهو يعصر البلاد لابتزاز آخر قرش . وليس فى الطاقة تأخير الخراب وفى هذه الاثناء لا يسع الانسان الا التفجع حين يفكر فيما يحدث الآن من الشقاء والشر » .

الفصل الثالث

السياحة فى بلاد العرب والهنـــد

بينا كانت تجرى هذه الحوادث فى مصر كنت أسيح بعيــدا مع زوجتى فى بلاد العرب الوسطى فلم يكن لى بها ولا بغيرها من حوادث العالم أقل علم •

وكنا قد مكثنا عدة أيام فى قبرص ونحن فى طريقنـــا الى دمشق التى كنا معتزمين أن نبدأ منها سياحتنا • وكان قد دفعنـا الفضول الى مشاهدة هذه الجزيرة التى دفعت فيها انجلترا ذلك الثمن الغالى أو بعبارة أخرى تلك الفضيحة الكبيرة • وقــد وجدناها تتلقى دروسها الاولى فى الادارة الانجليزية على يدى السير جارنت ولسلى وكانت الجزيرة لا تزال فى حر الصيف ولم تكن قد سقطت امطار بعد وكذلك لم تبد لنا الا أحسن قليــلا من فلاة تربة •

وقد زرنا ولسلى فى مقر الحكم بنيقوسيا ووجدناه يحمــل الوحشة على خير ما يستطيع فى عزلته • وقد أثنى فى حديثـه معنا على هذه « الجوهرة » الاخيرة التى ضمت للامبراطــورية غير أنه كان واضحا أن الجزيرة ليست لها قيمة فى تقديره الفنى

وكانت أشبه الاشياء بتلك المناظر الكثيرة التى تقرأ فى قصة « فيكار أوف واكفيلد » • انها أحضرت من السوق الى المنزل •

والواقع أنه كان يشق على المرء أن يستبين وجه الاستفادة منها أو طريقة الحصول على نفقات ادارتها وكان الحصول عليها قد أخل بسمعة انجلترا كما مر بك • وكان المسلمون السوريون يقولون أن انجلترا أخذتها بقشيشا من السلطان على خدمتها له •

وقد التقينا فى دمشق بكثير من أفذاذ الرجال منهم الامير عبد القادر الجزائرى بطل الحرب بين الجزائر وفرنسا • ومنهم بطل آخر هو مدحت باشا أبو الدستور العثمانى • ومع أنى كنت ميالا للعطف على اصلاح المسلمين فانى لم أمل لهذا البطل الاخير • والواقع أن مظهره لم يكن موجبا للتأثر بشخصيته • لم يكن ممتازا بأى شىء فى مظهره سوى أنه كان فخورا مختالا ولم أجد أثناء محادثتى معه فى موضوع تجديد تركيا واصلاحها أى عمق فى أفكاره بل وجدتها من ذلك الضرب الأوربى العادى الذى يحل عادة فى الشرق محل النبوغ الحقيقى والايمان الراسخ وكانت كل آرائه فيما يختص باصلاح الامبراطورية عامة وسوريا الذى كان قد عين واليا عليها خاصة مقصورة على الماديات كانشاء الخطوط الحديدية والقنوات وخطوط الترام وكلها أشياء طيبة فى بابها ولكنه لم يمس فى حديثه ما تعوزه

الادارة من الاصلاح • ثم انه لم تكن لديه البتة أموال يستطيع أن ينفذ بها اصلاحاته المادية فكانت الاصـلاحات والحالة هذه أوهاما فى أوهام • ولم يتكلم قط عن الأمور الكبيرة الأهمية كالاقتصاد والعدل وحماية الفقراء كما أنه لم يظهر أى عطف على أهل الولاية التى عين واليا عليها •

والواقع أنه كان أكثر من الاتراك احتقارا لكل ما هو عربى ولم يكلف نفسه مشقة كتمان هذا الشعور ولم تكن طرق معاملته للبدو لائقة بالانسانية • لهذا لم أمل اليه بطبيعة الحال • ومع ذلك أسفت على عدم محاولتى اثارة عطف الرأى العام البريطانى عليه فى أيام محنته ولو فعلت لكان أنقذه مسـعاى من الجزاء الفظيع الذى أنزله به السلطان ، ولكنى لم أعرف الحقـائق كلها فى ذلك الحين وفى سنة ١٨٨٤ عرفت من مصـدر أثق به حقيقة ما جرى فى محاكمة مدحت فى تهمة قتل كاذب ألقيت عليه قبل ذلك بثلاث سنوات وهذه مسألة هامة لا أجد داعيا للاعتذار عن ذكرها •

وقد يذكر قرائى أنى كنت أصبت أثناء اقامتى فى الاستانة بمرض خطير وعنى بى طبيب يدعى دكسون كان فى ذلك الحين طبيب السفارة البريطانية وكان قد وشجت بينى وبينه صلات المودة • وهذا الشيخ الفاضل قضى فى الاستانة خمسا وثلاثين

سنة فاستشرق تماما وأصبح أدرى بالشئون العثمانية من أى بريطانى آخر فيما أظن ـ وكان فوق ذلك عطوفا على القـــوم الذين عاش بينهم هذا الامد الطويل • وكان يختلج صدره الى جانب هذا العطف وفاء ونبلا على الطراز الانجليزى القديم • فكانت مميزاته تجعله أجدر الناس بالثقة فيما يتعلـــق برواية الحوادث التى اتصل بها •

لهذا يجب أن تعتبر شهادته حاسمة فيما يختص بالحــوادث الواقعة فى محيطها • وقد كنت فى الاستانة فى سنة ١٨٨٤ فحدثنى بها فظهرت لى من الصحة والاهمية للتاريخ بحيث دونتها فى نفس اليوم الذى سمعتها فيه وهى كما يأتى بالحرف الواحد :

فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٨٤ ندبت السفارة الانجليزية الدكتور دكسون لتحقيق ما أحاط بوفاة السلطان عبد العزيز فقدم تقريرا مفصلا عن جميع ما رآه فى القصر ذلك اليوم •

وكانت لجنة الاطباء مؤلفة من يونانى يدعى ماركو باشـــا وشيخ انجليزى كان طبيب لورد بيرون الشاعر المشهور وعـــدة أطباء آخرين •

وقد وجدوا الجثة فى دار الحرس وفحصوها جيدا • وكان السلطان فى قميص حريرى لا خطوط فيه• وكانت سراويله من الحرير القرنفلى ، ولما انتزعت الثياب لم يوجد فى الجثة خدش

ولا رض «وكانت أبدع جسم فى العالم» ، هذا عدا جرحين فى فى الذراعين حيث الشرايين . وكان جرح الذراع اليسرى عميقا بالغا الى العظم وقدسبر الدكتور دكسون غوره باصبعه أما جرح الذراع اليمنى فلم يكن محكما فلم يؤذ الشريان وكان ظاهرا أن الجرحين سببا الوفاة . وقد قنع الأطباء الآخرون بهذا الفحص وانصرفوا ولكن دكسون والطبيب الانجليزى الآخر أصرا على سماع شهادة والدة السلطان وقد شهدت بما يأتى :

حاول السلطان عبد العزيز أن ينتحر مرتين منذ أصيب بمرضه ، فحاول مرة أن يرمى بنفسه فى بئر . وحاول مرة أخرى رمى نفسه فى البوسفور ولكنه منع فى المرتين . وحذرت السلطانة من اعطائه أية أداة يستطيع أن يؤذى نفسه بها . فلما طلب اليها مرآة ومقصا ليصلح لحيته أعطته أصغر مقص لديها وظنت أنه لا يستطيع أن يؤذى نفسه به . وكانت تسكن غرفة مجاورة لغرفته وكان يقوم على حراسته فتاة أو فتاتان فى غيابها، فحدث بعد ظهرذلك اليوم أنه أمر الفتاتين بالخروج وأرتج الباب قائلا انه يريد أن يخلو بنفسه ولم تجرؤ الفتاتان على المعارضة فلما انقضت ساعة أخبراها بما حدث فانزعجت فى أول الأمر ولكنها أمرتهما أن تقفا بالباب وتنصتا ، فعادتا اليها وقالتا

انهما لم تسمعا شيئا • وبعد ساعة ذهبت تتبعها وصائفها ودفعت الباب ففتحته فوجدت السلطان راقدا على جنبه فوق متكأ وقد توفى •

وكان المتكأ والستائر من الحرير الاصفر ذى النقوش الحمراء وفحص زميل للدكتور دكسون المكان فوجد جانب المتكأ الايسر مشبعا بالدم ووجد تحته فوق الارض كثيرا من الدم الكريه الرائحة • ووجد فى وسط المتكأ بقعة دم صغيرة تطابق جرح الذراع اليمنى • ومع أنه فحص المكان جيدا فانه لم يعثر على أثر للدم الا فيما لاصق المتكأ ومن ثم لا يمكن أن يكون قد حدث نضال أو اغتيال •

وكما قالت السلطانة : « اذا كان قد قتل فلابد أن أكون أنا القاتلة لأنى كنت فى الغرفة المجاورة لغرفته وما كان أحد غيرى يستطيع أن يقترب منه »

وقد أحضروا فى محاكمة مدحت ومن معه قميصا من الكتان لامن الحرير مشقوقا من الجنب كأنما قطعته طعنة سيف وسراويل صفراء وخضراء ورداء من الفرو • ولم يحضروا الثياب التى كانت على الجثة •

وأحضروا غطاء متكأ من الشيت وستائر شيتية ملطخة بالدم ولم يحضروا تلك التى كانت فى الغرفة حيث وجدت الجثة •

ومن ثم كتب الدكتور ولسن احتجاجا قرر فيـــه ما يعرفه وأعطاه الى لورد دوفرين ورجاه أن يقدمه كشـــهادة لرئيس المحكمة . ولكن دوفرين أبى أن يتدخل بلا تعليمات وفى الوقت الذى أرسل فيه تلغرافا أو زعم فيه أنه أرسله حـــكم عـلى مدحـت .

وقال دكسون ان ماركو باشا لابد أن يكون قد أغري على أداء الشهادة التى أداها .

وكانت حكاية رؤية رجال يتسلقون داخلا وخارجا حـــكاية سخيفة فقد كانت الغرفة مرتفعـــة ولم يكن بد من أن يكسر الواثبون منها سيقانهم . هذا والدكتور دكسون شيخ دقيـــق وهو من أولئك الشهود الذين يقتنع بشـــهادتهم أى محلفين فى العالم . ولذلك أصدق شهادته كل التصديق مهما ظهر غريبـــا عند النظرة الاولى أن يكون السلطان قضى منتحرا لا مقتولا . وقد مات مدحت وداماد جوعا فى السلاسل والاغلال منذ بضعة أشهر ، كذلك مات شيخ الاسلام الذى أفتى بخلع عبد العزيز . وهذا الحادث الارهابى هو الذى أعطى عبد الحميد الســلطة المطلقة التى يتمتع بها الآن .

ومن الاشخاص ذوى الاهمية فى هذا التاريخ والذين قابلتهم بدمشق فى خريف سنة ١٨٧٨ السير ادوارد ماليت . وكان يومئذ

سكرتيرا للسفارة الانجليزية فى الاستانة ثم كان يسيح فى سوريا للتنزه من ناحية وجمع المعلومات من ناحية أخرى وقد عملت تحت رئاسة والده الجليل مرتين أثناء خدمتى السياسية وكانت بينى وبين أسرته وبينه علاقة ود متينة منذ كنا ملحقين سياسيين معا ، ومن ثم أستطيع أن أتكلم عن علم فيما يختص بصفاته التى أسيء فهمها فى مصر .

كان ماليت رجلا ذا مواهب متوسطة وقد رزق نصيبا وافرا من المثابرة والحرص والتعقل ولما كان قد ولد فى وسط سياسى ثم وضعه أبوه فى الخدمة وهو فى السادسة عشرة فقد كان ذا دراية فنية تامة فكان موظفا عموميا كفئا فيما يتعلق بتقاليدعمله وعاداته وكان فى استطاعته أن يكتب بلاغا بلغة واضحة . وكان يمكن أن يوثق من أنه لا يقول كلمة واحدة أكثر مما تجيزه تعليماته ، ولا يورط حكومته فى شيء عفوا .

ولديه من المواهب ما هو أنفع وأجدى فى أحوال الخدمة العادية التى كان يعمل فيها كالتبصر والتحفظ فى الكلام وانكار الذات وهى الصفات التى يمتاز بها وكلاء الدعاوى . ولا يخفى أن واجبات السياسى تماثل واجبات وكلاء الاشغال الا فى أحوال خاصة نادرة ، ولكن ماليت لم تكن له مواهب كسعة الخيال وقوة الابتكار وقدرة التصرف تحت مسئوليته فى الفرص التى تستدعى

عمــــلا ناجزا وقرارا سريعا ، وكان آخر رجـل يصلح لتدبير الدسائس والقبض على ناصية المواقف الحرجة ، كما كان لطيفا غير جذاب وفيه طفولة كثيرا ما ظهرت فى حياته الخاصة ، وكان كثير المثابرة حسن السلوك . وكانت استقامته ظاهرة بصـــفة خاصة لصغر سنه وكان يفضل عمله مهما يكن قليل الاهمية على أى ضرب من ضروب التنزه والاسترواح حتى لقد كان وهـو فى الاجازة يقضى بعد ظهر أكثر الايام فى نسخ البيانات فى مكتب والده بوزارة الحقانية مفضلا ذلك على عمله فى البحث عن شىء يشغله فى مكان آخر .

وقد عنيت بالدقة فى وصفه لأنه اتهم فى مصر بالطمع والدس والقلق ، وكل هذا مناقض لطبعه الهادىء . فلم تكن لديه روح مجازفة ، لا فى عمله ولا فى مسراته ولو كان كذلك لرافقنا الى بلاد العرب كما اقترحت عليه ولكنه لم يكن بالرجل الذى يعدل عن الطريق المطروق ومع أنى أثرت اهتمامه على قدر طـاقتى بمشروعى الروائى فقد فضل السير فى طريق السياحة العـادى ومن ثم مضى بعد بضعة أيام الى القدس

أما سياحتنا فكانت تختلف عن ذلك كل الاختلاف . وقد اتفق لنا من الامور الهامة والاحوال الشائقة أكثر مما توقعنا . فنشرت تفصيلاتها بالفرنسية والانجليزية بعنوان «حج الى نجد»

وانى لا أرى بأسا فى أن أذكرها هنا بايجاز فى بضع كلمات :
سافرنا بطريق الحج العادى الى المزاريب ومن هناك الى جبل حوران حيث أعطانا زعيم درزى من أسرة الاطرش رفيقا أو ان شئت دليلا وهكذا انحدرنا فى وادى السرحان الى الجوف ، حيث كان لمحمد عروق ابن شيخ تدمر . وقد كان مسافرا معنا بعض قرابته ، وبعد أن قضينا مع هؤلاء بضعة أيام فى اجتياز « نفود » وهو معبر خطر فى الصحراء الرملية الكبرى يستغرق قطعه عشرة أيام وصلنا « حائل » حيث استقبلنا الامير محمد ابن الرشيد الذى كان يومئذ سلطان نجد المستقلة بكل مظاهر التكريم على الرغم من أننا لم نحمل اليه خطابات أو توصيات . وقد كانت جنسيتنا الانجليزية جوازا كافيا فى نظره ، وكان قد اتصلت به اشاعات عن زيارتنا فى العام السابق لكثير من مشايخ عنزة وشمر . وكنا قد تعلمنا الى ذلك الحين من اللغة العربية ما يكفى للتحدث وقد وجدناه نبيلا لطيفا شديد الاهتمام بسماع كل مالدينا من أنباء العالم العظيم المعزولة عن نجد عزلة تامة بما يحيط بها من الصحراوات . وكان تواقا لمعرفة آرائنا فى كل الشئون ذات العلاقة بجزيرة العرب ولا سيما فيما يخص شخصيات زعماء البدو من أعدائه أو نظرائه .

أما السياسة الاوربية فلم يعن بها الا قليلا وكذلك الحال بالنسبة للاستانة ومصر .

ومع أن نجدا كانت تعتبر فى بغداد ولاية عثمانية فان أمراء الوهابيين لم يعترفوا قط بسيادة السلطان عليهم ولم يكن بينهم وبينه أثناء القرن الماضى كله الا العداء .

وكانت ذكرى غزوة محمد على الكبير لنجد لا تزال حية . وكذلك كان استيلاء مدحت باشا على الحساء عند خليج العجم وحملته المكروهة على الجوف يذكران بالمقت فى حائل ، وكان من دواعى رضائه عنا أننا قدمنا عليه بغير أن يكون ثمة دخل لأية سلطة عثمانية .

وكانت نتيجة هذه الزيارة الودية لعاصمة بلاد العرب المستقلة وما رأيته فيها من نظم الحكومة الحرة التى عاشت فى قلب تلك الجزيرة العجيبة قرونا عديدة أن زاد تحمسى فى عواطف الحب والاعجاب التى كنت أضمرها للجنس العربى . والواقع أن « حبى السياسى الاول » كان لذلك الجنس المجيد ولقد كان حبا ما برح يستحوذ على يوما بعد يوم حتى عقدت النية على أن أبذل من ناحيتى كل معونة أستطيعها لمساعدته على الاحتفاظ بغريزة الاستقلال التى شهدتها فيه .

وقد تراءت لى جزيرة العرب أرضا مقدسة ، واعتقدت أن لى فيها رسالة يجب أن أؤديها وعندى أنى لم أبالغ فى تقدير الفضائل التقليدية التى رأيت القوم دائبين عليها هناك .

ان نظام الحكم البدوى لا يفضل الا قليلا فى عرف الشرقيين نظاما يوضع للسلب والنهب .

والواقع أنه ينحط الى ما يقرب من هذا الدرك على حدود البلدان المتمدينة . أما فى قلب بلاد العرب ذاتها فليست الحال كذلك .

فقد رأيت « الحرية والمساواة والاخاء » تعيش عيش الحقائق الحية فى نجد ويتمتع بها هناك كل رجل حر ولم أرها كذلك فى أية بلاد أخرى من البلاد التى زرتها فى الشرق والغـرب ولا فى أوربا التى نباهى فيها بهاتيك النعم وان كنا لا نملكها فى الحقيقة بل ولا فى فرنسا حيث نجدها معروضة للانظار ــ كتابة ــ فى كل مكان .

ففى نجد تعيش هيئة اجتماعية طبقا للنظام الذى يحكم به دعاة المثل الاعلى فى بلادنا فلا ضرائب ولا بوليس ولا تجنيـد ولا اكراه فى أى شىء . ولا قانون لهذه الهيئة الا الرأى العـام ولا نظام الا ما تمليه مبادىء النبل والشرف .

وهنـا كذلك أناس فقـراء قانعـون بفقرهم وعائشون فى رخاء نظرا لقلة احتياجاتهم ، أناس أجابوا عن كل سؤال ألقيته عليهم ــ وطالما ألقيت أسئلتى هذه بنصها فى غير هذه البلاد ــ بقولهم :

ـ الحمد لله ، لسنا كغيرنا من الأمم • اذ لدينا هنا حكومة منا ونحن راضون قانعون •

وهذا هو الذى ملأنى دهشا وسرورا • وهذا هـو الذى حولنى من رجل لا يعبأ بما يرى من آلام العالم الشرقى الى رجل يفيض بالغيرة على بسط نعمة الحرية على الامم التى ترزح تحت الاغلال والقيود • وقد أيدت اعتقـادى ورسخت أمانى سياحتى خلال الربيع التالى فى العراق وجنوبى ايران تلك البلاد الاكثر مدنية وأقل سعادة وهناء من نجد •

والواقع أن نجدا انما هى نقيض أودية الفرات الدنيا التى يسكنها شعب عربى أنزل به الحـكم العثمانى صنوف الفقر والانحطاط •

وأشقى من ذلك أهل عربستان الايرانية • وقد فكرت فيما يمكن أن يعيد لهؤلاء القوم نبلهم المفقود ورخاءهم واحترامهم لأنفسهم ، وخيل لى لحظة أن الحماية البريطانية قد تكـون وسيلة النجاة • وكانت هذه الافكار تتكون وتتجسد فى عقلى أثناء سياحتنا البرية الصعبة من بغداد الى بوشير على الخليـج الفارسى ثم بطريق البحر الى كراتشى حتى وصلنا الهند حيث كانت تنتظرنى تجارب من نوع آخر وحيث تلقيت درسا جديدا فى الشئون الشرقية •

وكان سبب ذهابنا الى الهند بعد سياحتنا الصعبة أننا وجدنا في بوشير خطابات كتبها لنا لورد ليتون الذى كان صديقى الحميم منذ عدة سنوات وهو يدعونا فيها لزيارته بسيملا ٠

وكان ليتون الذى لا أقول هنا شيئا عن صفاته الشخصية الجذابة بعد الذى قمت به قبل الآن من حقوق ذكراه المحبوبة موظفا سياسيا مثلى وقد خدمت معه فى لشبونة سنة ١٨٦٥ وقد تقارضنا الشعر معا وعشنا فى صداقة متينة استمرت الى اليوم ٠

فالآن ــ فى سنة ١٨٧٩ ــ كان قد مضى عليه عامان حاكما للهند وكاد يختم حملته الأولى على الافغان بنجاح وأمضى معاهدة « جنداماك » خلال أول شهر قضيناه معه ٠

وكان ليتون ممن يؤمنون بالخرافات ويعتقدون بالأوهام رغما من سلامة ايمانه الدينى فقضى مدة الحرب وهو يرسل فى الهواء مناطيد صغيرة فاذا ارتفعت بسرعة فى الهواء اعتقد أن جيوشه ظافرة والعكس بالعكس ٠

وليس معنى ذلك أنه كان لصعود هذه المناطيد بسرعة أو ببطء تأثير فى قراراته فقد كان كاملا مجدا متنقلا ٠ ولكن سرعة المناطيد كانت تهدىء أعصابه التى كانت أبدا متوترة لما كان يراه فيها من دلالة غير عادية حمل نفسه على الاعتقاد فيها ٠

وقد قرن بين وصولى سملا وبين التحول الحسن الذى طرأ على القتال فاعتقد أن لى تأثيرا سعيدا فى أحواله ما بقيت معه •

وقد أسر الى بجميع أفكاره فعرفت منه أمورا هامة فى السياسة العليا لا حاجة بى الى تفصيلها هنا وان كان سوف يوجد بعضها فى هذه المذكرات بعد • وقد أظهر لى عطفه على كرجل صاحب آراء عربية وروائى وشاعر ، وأمر السير ألفريد ليال الذى كان سكرتيره للشئون الخارجية أن يعطينى كل المعلومات الممكنة •

ولم تكن حكومة الهند حينذاك غير راضية فى أن تخطو الى الامام خطوة فى الخليج الفارسى • وكانت البحرية الهندية قد تعودت فى بضعة الأعوام الأخيرة أن تشمل الموانىء العربية بنوع من الحماية مقصورا على منع القرصنة ومنع القبائل من التقاتل فى البحر مع الامساك عن التدخل معهم فى البر • فكان هذا نوعا من الحماية محمودا وقد رفضت حكومة كلكتا الاعتراف بمزاعم السيادة العثمانية على تلك الموانىء وسكانها •

وكان السلطان عبدالحميد قد بدأ يزعج سلطاتنا فى الهند ببث الدعوة للجامعة الاسلامية ، وقد ظنوا أن هذه الدعوة أخذت تؤثر فى ولاء مسلمى الهنود• لذلك كانت فكرة الاستقلال العربى مستحسنة من وجهة النظر الرسمية • وقد أحسن السير الفريد ليال الشهادة لى عند لورد ليتون حتى لقد اتفقنا على أن

أعود فى الشتاء القادم الى نجد وأحمل رسالة ودية من حاكم الهند الى ابن الرشيد ، على أنني مسرور الآن بعد أن عرفت أساليب حكومة الهند لعدم تنفيذ ذلك المشروع ولو فعلت لكنت وقفت نفسى موقفا كاذبا وأكون قد تبرعت غير متعمد بجعل نفسى أداة فى يد سياسة ترمى الى استعبادهم مهما حسنت نيتى وعظمت رغبتى فى مساعدة العرب وخدمة قضية الحرية ، فان من سيئات أساليب السياسة الاستعمارية البريطانية أنها لا تستطيع أن تتدخل بين قوم أحرار الا وتنتهى بعمل سيء حتى ولو كانت قد بدأت عملها حسنة النية . ذلك أن هذه السياسة مملوءة بالاغراض الانانية وكثرة هذه الاغراض تقلب أحسن البدايات الى أسوأ الخواتم .

ولكن هذه الاشياء لم تكن كل ما دار عليه البحث بينى وبين ليتون ومرءوسيه ، وقد كلفه وزيره المالى السير جون ستراتشى من علمنى أساليب المالية والاقتصاد الهندية وطرق مكافحة القحط وجباية ضرائب الاراضي والعملة وضرائب الملح وغير ذلك من المسائل الكبرى التى كانت مدار البحث يومئذ . وكان ستراتشى رئيس المدافعين الرسميين عما كان يسمى فى ذلك العهد سياسة الاقتصاد فى النفقات .

ومن دواعى الأسف أن نتيجة هذا التعليم لم تكن زعزعة

اعتقادى بأمانة حكومة الهند باعتبارها وصـــــية على مصالح الوطنيين الهنود . وسأورد هنا مقتطفات من الخطابات التى كنت أكتبها فى هذا الحين ومنها يظهر كيف كانت تؤثر فى النظـرات القصيرة التى كنت ألقيها على الشئون الهندية فى مراكز الحكم الرئيسية ، وهاهى المقتطفات :

« لقد خاب أملى فى الهند التى صرت أعتقد أنها سيئة الحكم كسائر البلاد الاسيوية مع فارق واحد هو أن النيات هنا حسنة وهناك سيئة ، فالضرائب هنا فادحة والبلاد فى أيدى حـــكام أجانب ويرى الانسان هنا من الاسراف فى الأمـــوال العمومية ما يراه فى تركيا فدعنا نعتقد أن المسرفين هنا بلهاء وليســـوا لصوصا . ومع ذلك فالنتيجة واحدة ولست أرى فرقا بين أن يرغم الهنود الذين يتضورون جوعا على الاكتتاب لانشاء كنيسة فى كلكتا وبين ارغام البلغاريين على دفع نفقات قصر يشيد على شاطىء البسفور . ان الفقر يأكل هذه الامبراطورية الكبيرة فى حكوماتها المركزية ولا سبيل الى اسعادها الا بشقــها وترك كل شق يحكم نفسه » .

وكتبت فى خطاب آخر الى صديق آخر يدعى هارى براند وكان يومئذ عضوا فى البرلمان وهو الآن لورد هامبدن :

ان الوطنيين ـــ كما يسمونهم هنـــا ـــ ليســـو الا قبيلا من

الرقيق فهم مروعون تعساء وقد هزلت أجسامهم . ومع أني محافظ وعضو في نادي كارلتون أعتـرف بأني قد ارتعت من القيود التي تغل الهنود وان ثقتي بالنظم البريطانية ونعمةالحكم البريطاني قد أصيبت بضربة شديدة . لقد درست ألغـاز المالية البريطانية على أحسن أساتذتها ـ وزراء الحكومة وكبار موظفيها ـ فانتهيت الى الاعتقاد بأننا لو ثابرنا على « ترقيـة » البلاد بالسرعة التي نعمل بها الآن فلا مفر لأهل البلاد من أن يلجأوا في آخر الأمر الى أكل بعضهم البعض اذ لا يمـكن أن تبقى في البلاد غير أجسادهم الآدمية . ولعمري لست أفهم لماذا نأخذ نحن الانجليز أموال هؤلاء الهنود الذين يتضورون جوعا لننشيء لهم بها خطوطا حديدية لا يريدونها وسجونا ومـلاجيء للمجانين ومباني أثرية للسير بارتر فرير ، كلا ! ولا أعرف لماذا نطعم من أرزهم النزر القليل جيوشا من رجال البوليس والحكام والمهندسين . انهم لا يحتاجون شيئا من هذا ولكنهم في أشـد الحاجة للارز كما يظهر لكل من يرى ضلوعهم البارزة . أمـا الدين الفادح الذي ألقي على عاتقهم فالشرف يقضي بانـكاره كدين على الهند على الاقل . وليس في طاقتي أن أرى الفصل الادبي الذي تدعيه الحكومات بفرضها ضرائب على قوم لتسديد ديون لم يقترضونها بل اقترضتها الحكومات . انجميع الديون العامة حتى في البلاد التي تحكم نفسها بنفسها قليل أو كثير من

الغش اما فى البلاد المستعبدة استعبادا أجنبيا فهى لا تعدو أن تكون سرقة » .

وعلى العموم كان لزيارتى القصيرة لمراكز الحكم فى الهند تأثير كبير فى تكوين آرائى فيما يختص بمسائل السياسة الاستعمارية الكبرى وتوجيهها الوجهة التى جرت فيها فيما بعد . على أنى كنت لا أزال أعتقد قليلا أو كثيرا بحسن المقاصد وان لم أكن أعتقد بحسن النتائج فى حكمنا الشرقى وظننت أن فى الطاقة تحسينه وأن الجمهور البريطانى لابد أن يصر على ضرورة تحسينه اذا عرف حقيقته .

ومن آخر ذكريات الشهرين اللذين قضيتهما مع ليتون فى بترهوف كما كان يدعى قصر الحاكم يومئذ فى سملا ، عشاء جلست فيه الى جانب كافانارى وكان ذلك فى الليلة التى بدأ فى صباحها السفر فى مهمته القاتلة الى كابول . وكان هذا رجلا يبعث اهتمام المرء به وقد أخبرنى أنه حفيد تاجر من أهل فينيسيا كان قد أقرض بونابارت مالا كثيرا حين احتل جيش الجمهورية الفرنسية فينيسيا ولم يسترده قط ، على أن الامبراطور كافأه بأن جعل ابنه وزيرا خاصا له فصار هذا الابن من أشد المخلصين للاسرة الامبراطورية . وكان لويس نابليون كافانارى الحفيد هو أيضا بونابرتيا مخلصا وقد اعتقد انه واسمه كما هو ـ لابد

أن يكون له رسالة هامة يؤديها . وكان ذا ثقة «بنجمه» وأشهد أن الاخفاق والخطر لم يخطرا له ببال فى الحديث الطويل الذى دار بيننا فى ذلك المساء .

ومع ذلك قد كان واجبا أن يكون له نذير من الانباءالمحزنة التى تكلمنا فيها أيضا وهى أنباء وفاة ولى العهد الامبراطورى فى جنوبى أفريقيا . ولما افترقنا كنا على موعد بأن أذهب أنا وامرأتى فى خريف العام القادم لزيارة كابول ، فقال لى :

«لا تأت قبل الخريف على كل حال فانى لاأستطيع أنأجهز دار اقامتى قبل ذلك لاستقبال السيدات »

ولم يشر أقل اشارة الى أى سبب أشد من هذا خطرا .

ومن الذين عرفتهم فى ذلك العهد والذين لهم صلة بتاريخ محزن «كولى» وكان يومئذ سكرتير ليتون الحربى ومات بعد ذلك بعام على تل ماجوبا . وكان ليتون يثق كل الثقة بمواهبه الحربية وقد اشتركا معا فى توجيه الحملة على الافغان من سملا .

وأحسب أن خطأه كان فى تجاوزه الحد فى الثقة بنفسه وفى مطامعه . وقد احتل ماجوبا لأنه لم يطق أن تنتهى الحملة بغير أن يكون قدأحرز نجاحا شخصيا لنفسه .

وكان من أصدقائنا فى ذلك الزمن ملجند ــ لورد منتو

الآن ـ ولول كارو ، وبرابازون وكلهم من أركان حرب ليتون وكذلك لورد رالف كير ، وبلودن وباتن وزوجاهما الجميلتان . وقد عدنا من بومباى فى صحبة ملجند والماجور جاك نابر تاركين الهند فى ١٢ يوليو فوصلنا السويس فى ٢٥ منه ووصلنا فىاليوم تفسه بالقطار الى الاسكندرية .

وأحسب أنها كانت « عدن » تلك الميناء التى عرفنا اذ مررنا بها أعظم أنباء مصر فى ذلك الحين وهو عزل الخديو اسماعيل . ولما وصلنا الى الاسكندرية عرفت من زميلى السابق فى الخدمة السياسية وهو فرانك لاشيل الذى كان يومئذ قائما بأعمـال القنصل الجنرال فى الوكالة البريطانية تفصيلات الدور الـذى لعبه فى هذا الشأن .

وليس ثم خلاف يذكر بين ما أخبرلى به وبين التقـارير الرسمية التى نشرت فى هذا الصدد . لذلك لا أظن أنى فىحاجة لذكره هنا ولكن الذى لم يظهر فى التقارير الرسمية هو الدور الذى لعبه أصحاب مصرف روتشلد فى هذا الصدد . وهو دور لم يعرفه لاشيل يومئذ وقد عرفته من ولسن بعد ذلك والواقع أنه كان يحق لولسن أن يفخر بأنه استطاع أن ينتقم لنفسـه بواسطة هؤلاء . قال لى انه بعد عودته منبـوذا من حكومته ذهب مباشرة الى بيت روتشلد فى باريس وأنبأهم بالخطر الذى

تستهدف له أموالهم بعد التحول الذى طرأ أخيرا على الاحوال في مصر والاسكندرية فالخديو يريد أن ينكر ديونه ويحتمى وراء اعلان الحكومة الدستورية فى مصر . فاذا لم يمنعوا ذلك فقدوا كل شيء . وبذلك نجح فى ارهاب آل روتشلد وحملهم على استخدام نفوذهم السياسى الكبير فى مصلحة التدخل العاجل وقد بذلوا جهدهم عبثا أول الامر فى وزارتى خارجيتى لندن وباريس . بعد أن كانت الحكومة البريطانية قد أقلعت عن ميلها للتدخل لاشتغالها بمتاعب جنوب افريقيا وكذلك لم يكن لحكومة باريس رغبة فيه .

على أن يأس آل روتشلد الناجم من شدة الخوف على أموالهم دفعهم الى رفع التماس الى بسمرك فى برلين . وكان هذا قد شمل بيت روتشلد اليهودى بحمايته منذ أيامه فى فرانكفورت ولم يفعل ذلك عبثا . وهنا أفهم المستشار الالمانى ، وكان يومئذ قويا مرهوب الجانب ، حكومتى لندن وباريس بأنهما اذا لم تستطيعا التدخل فى مصر لمصلحة حملة السندات فان الحكومة الالمانية سوف تجعل قضيتهم قضيتها الخاصة .

وكانت هذه الخطوة حاسمة فاتفقت فرنسا وانجلترا على أن يكون التدخل أقل ما يستطاع عنفا وذلك بأن طلبتا من السلطان أن يعزل تابعه المسرف . وقد أبى اسماعيل الى اللحظة

الاخيرة أن يصدق بأن الباب العالى يتخلى عنه بعد الملايين التى حباه بها بسخاء ومع بدرات الاموال التى كان لا يزال مستعدا لاعطائها له ، تقول بدرات الاموال لأن اسماعيل كانت لديه كنوز مخبوءة على الرغم من ظواهر افلاسه. وكان الضغط الاوربى عليه شديدا حتى لقد قال ولسن انه قد رفعت اليه مسألة اختيار خلف اسماعيل من اثنين أحدهما الامير حليم الذى كان يميل اليه السلطان والثانى ولى العهد الامير توفيق وقد فضله ولسن لما يعرفه من ضعفه وصلاحيته ليكون آلة فى يد السياسة .

ومهما يكن من الامر فقد نقل الى اسماعيل البيان الساحق الحامل نبأ سقوطه وصيرورة امارة الخديوية الى ولده توفيق .

وقد كان لاشيل هو الذى قدر عليه أن ينقل هذا النبأ الى اسماعيل . وهنا أخذ اسماعيل كل ما كان فى المالية من النقود وجمع كل ما استطاع جمعه من النفائس ومضى الى يخته « المحروسة » ومعه ما لا تقل قيمته عن ثلاثة ملايين جنيه .

الفصل الرابع

السياسة البريطانية سنة ١٨٨٠

كانت وفاة كافاناري المحزنة فى كابول ــ تلك الوفاة التى حدثت قبل أن ينتهى صيف سنة ١٨٧٩ والتى ورطت ليتــون فى حرب جديدة ومتاعب سياسية لاآخر لها ــ قد وضعت حدا لمشروع السياحة ذلك العام سواء أكان فى أفغانستان أم فى بلاد العرب ومن ثم قضيت اثنى عشر شهرا كاملة فى انجلترا وهى من أملأ أيامى بالعمل والمشاغل ومع أنى كنت قد بلغت الاربعين مــن العمر فانى لم أكن الى ذلك الحين قد أديت أى عمل سياسى عام• ولا ألقيت خطبة على جماعة ، ولا كتبت مقالا واحدا لأية مجلة أو خطابا لجريدة •

وقد حملنى الحياء الذى كنت أشعر به فى شبابى عــلى الانكماش عن أى عمل فى أى شــكل كان ولم تزدلى تربيتى السياسية الا مقتا للظهور • ولا يخفى أن السياسة تؤثر الخفية سواء أكان لديها ما تخفيه أم لم يكن لديها • كما أنها لا تثق بالاقوال التى تلقى علانية وتغار غيرة شــديدة من قلة بصر الصحف • ولكن الحال لم تلبث أن تغيرت •

ومهما تكن الكيفية التي أقنعت بها نفسي بأن لي مهمة أؤديها في الشرق ، ثم مهما تكن هذه المهمة مبهمة فقد بدأت أتكلم وأكتب وتغلبت على حيائي الى حد أني ظهرت مرتين على منبر .

وكانت أول مرة تكلمت فيها على هذا النحو في اجتماع عقدته الجمعية البريطانية في شيفلد يوم ٢٢ أغسطس وكنت قد دعيت له كسائح ممتاز ، كمادعي سربابنتو ، وبرازا ، وكاميرون وكلهم ذوو شهرة افريقية وفي هذا الاجتماع عارضت كاميرون في تحبيذه مد خط حديدي في وادي الفرات . وكنت أستطيع أن أتكلم في هذا الشأن بخبرة تزيد على خبرته فانه كان قد أحجم عن السير في الجانب الوعر من هذه المنطقة في العام السابق على الرغم من أنه بدأ سياحته بضجة كبيرة . وهذا الجزء هو الواقع بين بغداد وبوشير .

أما نحن فقد عبرنا الطريق كله من البحر الى البحر ، وقد استأنفت معارضتي في مقال نشرته مجلة « فورتنيتلي رفيو » ، وهو أول مقال كتبته . وكان جون مورلي يحرر المجلة حينذاك وقد قدمت له توصية من ليتون واستطعت أن أثير اهتمامه بأفكاري الشرقية . وقد عاد على هذان الحادثان — الخطابة والكتابة — بالثناء الجم وشجعاني على الاستمرار في نشر دعوتي . وكنت مشغولا كذلك بقرض الشعر ، ثم كان هناك

أيضا كتاب زوجتى عن السياحة « حج الى نجد » لأبوبه وأطبعه فهذا العمل المضاعف شغلنى جد الشغل فى الشتاء كله .

على أنى لم أشغل نفسى بالسياسة الداخلية قط مع أن الوقت كان وقت أزمة وكان غلادستون ــ والانتخابات قريبة منه ــ لا ينفك عن الوعظ والخطابة .

وكان ميلى مع المحافظين فيما يختص بانجلترا ، أما فى المسائل الشرقية فقد كنت أعتبر غلادستون متعصبا على قلة حبى للاتراك فى ذلك الزمن .

وكان أصدقائى ماعدا براند وهملتون محافظين ، ثم ان حبى ليتون حجب عن عينى أسوأ آثام دزرائيلى الاستعمارية . وقد تشبثت فى ذلك الحين بفكرة مآلها أن انجلترا قد تصلح أداة خير فى الشرق اذا أحسن تفسير معاهدة قبرص . وكنت لا أزال متأرجحا فيما يختص بموقفها الاستعمارى بين الرجاء والخوف ولم أستقر على رأى حتى دونت أفكارى .

ومن شواغل ذلك الشتاء الكبيرة عنايتى بتنظيم اصطبلى فى كرابت . وكنت فيما يختص به فى مراسلة مستمرة مع العالم الرياضى . ومن الغرابة بمكان أن آرائى الخاصة بلحوم الخيل كانت أول فرصة مهدت لى الاتصال بغلادستون كتابة .

وكان عطفه المشهور على يونان القديمة قد أثار فضـوله

لمعرفة آرائى فى خيلها وطريقة تربيتها فأرسل يستوضحنى كل ذلك بواسطة المستر تولز محرر مجلة « فورتنيتلى رفيو » فهذا وما حدث من تعيين صديقى ادوارد هاملتون سكرتيرا خصوصيا له حين خلف دزرائيلى فى رئاسة الوزارة فى ابريل كونا الحلقات التى أدت بعد ذلك الى تراسلنا فى الشئون المصرية •

ويتيسر معرفة الثورة الفكرية التى كنت أعيش فيها أثناء ذلك العام سواء أكان فى الآداب أم الاجتماع أم السياسة باقتطاف نبذ من مذكرات كنت أخذت فى كتابتها فى ذلك الحين وسأقصر هذه النبذ على ما كان خاصا منها بالشرق ، والنبذة الاولى يصف فيها لورد سترادفورد رادكليف الذى لبث سفيرا لبريطانيا فى الاستانة زمنا طويلا والذى يعيش الآن وقد شاخ فى عزلة مع ابنتيه على حدود كنت وسسكس :

مارس سنة ١٨٨٠ — زيارة للورد رادكليف فى فرانت • أعطانى اللورد ورقة عن الاصلاحات فى تركيا• وهو يزمع ارسالها للتيمس وقد قرأتها فى فراشى • وهى عمل رجل مسن كلها ابهام وارتباك وليس فيها الاقليل من مضاء العزم• وقد كان الواجب ألا يكتب الشيوخ الا الذكريات • وقد بلغ اللورد الرابعة والتسعين من عمره •

ولكنه مع ذلك شيخ عجيب قد ارتسمت على وجهه أمارات

التقوى فلونه مزيج من اللبن وورق الورد وعينـــاه زرقاوان صافيتان وبياض شعره كبياض الثلج ومع أن سمعه قد ضعف فهو لا يزال يجيد الكلام •

وقد رددت عليه بمذكرة أودعتها آرائى فى تركية آسيا ثم كنت أقضى معه الصباح مصغيا لذكرياته القديمة فقد كان قائما بأعمال السفارة البريطانية فى الاستانة حين مر بها لورد بـيرون فى سياحته الموصوفة فى قصيدة «تشيلد هارولد» وقد لبث معه ستة أسابيع فى نزهة يومية • وكان بيرون يومئذ لطيف المعاشرة ولم تكن أحاديثه قد امتلأت بنكاته المقذعة •

وكان الشيخ رادكليف قد التقى به قبل ذلك سنة ١٨٠٥ فى ملعب كرة اذ كانت تتبارى مدرستا اتون وهارو وكان كل منهما يلعب مع فريق •

قال الشيخ : وكان بيرون يلعب الكرة ــ كركيت ــ على خير ما يمكنه عرجه •

قال : وما ملت قط لأن أصدق أنه كان بين بيرون واللادى كاروتش لام أى خطأ حقيقى وكل مافى الأمر لم يتجاوز الرحمة والرقة والخير ، وكلها أمور لا تتفق مع ما اشتهر به بيرون• وقد كنت أفضل جلوسى لاستماع هذه الذكريات القديمة على سماع حديث أجمل امرأة فى لندن •

١٦ مارس ــ تناولت الفطور مع رفرز ولسن ودارت مناقشات حول شخصية الكولونيل غوردون . والعالم كله متفق على أنه رجل بارع . وقد حكم السودان وحده زهاء أربع سنين واجتث تجارة الرقيق من جذورها . وقد عاد اليوم الى لندن فلم يـكافأ بشيء ولم يره لورد بيوكنسفيلد ــ دزرائيلى ــ ولا غيره من الوزراء .

وقد أخطأ فى أول الامر فيما يختص بعلاقاته معهم وقد مر بباريس فى عودته واجتمع بلورد ليوتس فى السفارة البريطانيـة ورجاه فى أن يسعى فى تعيين خلف أوربى له فى السودان . وهدد بأنه اذا لم تفعل الحكومة البريطانية ذلك يذهب الى الحـكومة الفرنسية .

وبعد هذا دارت بينه وبين ليوتس مراسلات كتب غوردون فى خلالها خطابا حادا يقول فى خاتمته :

« ان من دواعى ارتياحى ثقتى بأنه بعـد عشرة أو خمسـة عشر عاما يتساوى الجميع . ففى صندوق أسود طوله ستة أقدام ونصف وعرضه ثلاثة أقدام تودع الرفات سواء أكانت رفات سفير أم وزير أم رفات خادمك الخاضع المطيع »

فهذه الأقوال صيرته مجنونا فى نظر الرجال الرسميين . وكان اليوم قد ترك أوربا ونفض ترابها عن حذائه قاصدا الى زنزبار .

ولست أشك فى أن هذه النادرة تمثل أخلاق غوردون كل التمثيل وهى منسجمة مع كثير من الرسائل التى بعث بها الى السير ايفلن بارنج ـ لورد كرومر ـ بعد ذلك باربع سنين • وقد كان موظفونا أبدا يكرهونه لتعوده خرق قواعد سياستهم والاخلال بمناهجهم الرسمية • وقد اعتقد بعضهم فيه الجنون واعتقد آخرون أنه سكير وآخرون أنه متعصب دينى اذا عرضت له مشكلة استفتى فيها انجليه أو اقترع عليها بالقاء قطعة من العملة فى الهواء • فلم يفهمه أحد ولا وثق به أحد •

ففى الوقت الذى أكتب عنه ـ أوائل ربيع سنة ١٨٨٠ ـ كان غوردون مستاء جدا من الحكومة البريطانية بسبب الدور الذى لعبته فى عزل اسماعيل • وكان غوردون لسبب ما يحب اسماعيل ويكره خلفه توفيق فحين علم فى الخرطوم بما حدث تخلى عن الحكم وساءه على وجه أخص أن خلفه فيه أحد الباشوات الاتراك ولم يخلفه أوربى كما كان يريد •

وقد كان غوردون من أهل النبوغ وله كثير من الصفات النبيلة ولكنه كان كذلك مجموعة مناقضات ويظهر أن للموظفين عذرا فى اعتقادهم أن عقله لم يكن سليما فى كل الأوقات وقد كان هذا هو الرأى الرسمى فيه ـ كما سيظهر بعد ـ حتى فى الوقت الذى عهد اليه فيه بمأموريته الاخيرة فى الخرطوم •

وهنـاك نبـذة أخرى تاريخها ١٦ مارس أيضا ــ مررت بالكردينالماينج وكان حديثنا فى السياسة وقد سألنى لمن أعطى صوتى فى الانتخاب ؟ فقلت سأعطى صوتى للخمسة جنيهات •

فقال: تريد أن تقول بانك لن تنتخب أبدا فقلت: لا أستطيع أن أثير فى نفسى اهتماما بمثل هذه الأشياء ، وأنظر الى المدنية كأنه مقضى عليها بالفناء والى السياسة كأنها أداة لا تستطيـع أن تقدم النهاية أو تؤخرها •

فقال الكردينال : هذا هو رأيى وان كنت أبنيه على مسألة أخرى ، فى الغالب ان اوربا ترفض المسيحية وترفض معهاالقانون الادبى • وقد تجدد اليوم حكم القوة على نحو ما كان فى أقدم الاجيال ، ولا يمكن أن يكون لذلك نتيجة غير سـفك الدماء والخراب وربما قام على أنقاض الكنيسة شىء آخر •

ثم تكلمنا عن أشياء فقال ان « رالف كير » أخبره بأن الهنود يعزون خفة وطأة حكمنا هناك الى الخوف وانهم يحترمـون الروسيين لأنهم يحكمون بالقوانين العرفية •

فقلت : ان الروسيين أسيويون وهم يحـكمون بالطرق الاسيوية ــ وبالتدليس اذا أمكن ــ اذا لم يكن بالقوة وهـذا هو ما يفهمه الاسيويون •

فقال الكردينال : ان الروسيين أسيويون كما تقول وأزيد

على ذلك أن النيهلست بوذيون وليست النهليستية من نتـــاج الغرب ولكنها محصول شرقى .

وقد دارت انتخابات سنة ١٨٨٠ على مســائل السياســـة الخارجية أكثر منها على أى شيء آخر . وكان غلادستون قـد هاجم بكل قوته مشروعات دزرائيلى فى التوسع الاستعمــارى ووصف بفقدان الركن الادبى تدخله فى الاستانة وبرلين لمصلحة الاتراك كما أنحى بأشد اللائمة على استيلائه على قبرص وشرائه أسهم قناة السويس واعتدائه على مصر ، كما حمل على حملتى الافغان وعلى حرب جنوبى افريقيا التى كانت لا تزال ناشبة .

أما فيما يختص بمصر فكان غلادستون قد أعلن آراءه كتابة قبل ذلك اذ كتب مقالا فى عدد أغسطس سنة ١٨٨٧ من «مجلة القرن التاسع» بعنوان «الاعتداء على مصر» وأعرب فـيــه بعبارة جلية قوية عن معارضة أخذ انجلترا على عاتقها أية مسئولية على ضفاف النيل . وهذا المقال من الشهرة والترفع عن المساوىء التى أصابت مصر على يديه بحيث يجب أن نقتطف شيئا منــه وقد ذكر فى هذا المقال أنه يعارض فى اعتداء كهذا لعدة أسباب .

أولا — لأنه يزيد فى ثقل الحكم الشرقى الموضوع عــلى عاتق بريطانيا والذى أصبح ثقله عظيما الى الآن .

ثانيا ـ لأن توسيع الحكم الاستعمارى لايمكن الابوسائط شائنة .

ثالثا ـ لأن زعم حماية طريق الهند باحتلال وادى النيل زعم كاذب لأن طريـــق رأس الرجاء الصالـــح هو طريق المواصلة الحقيقى .

رابعا ـ لأن أى تدخل فى قنـــاة السويس أو فى القـــاهرة لابد أن يؤدى الى مجازفات أخرى فى أفريقيا .

قال: وسواء اشترينا وجودنا فى مصر أم سرقناه فلاشك فى أنه سيكون نواة امبراطورية فى شمالى افريقيا وهى امبراطورية لابد أن تنمو حتى تصل الى منابع البحر الابيض وحتى تصـــل أيدينا منها ـ فوق خط الاستواء الى أيدينا الاخرى فى ناتال وكاب تون دع عنك الترنسفال والبرتغال فى الجنوب والحبشة وزنزبار اللتين تبتلعان أثناء السياحة . وقد تقنع من حيث سعة الاراضى الامبراطورية فى كل ركن من الاركان الاربعة ولكننا لن نكون منها آمنين » .

ثم كتب كذلك فى معنى المحافظة على الحكومة الذاتيـــة الاسلامية فى القاهرة فقال :

« ان الاحساسات التى قد يؤديها فى مصر سوف تكـــون معقولة وعادلة لأنها مأهولة من قرون كثيرة بشعب اســـلامى

وقد حكمت هذا الشعب سلطات اسلامية ، وكان لمصر فى وقت من الاوقات سلاطين . وكانت مستقلة استقلالا داخليا أثناء التبعية التركية وهذه حالة سعيدة فى أى بلاد كانت فلا يجوز لنا أن نغيرها . نعم ان شكاوى الناس هناك جسيمة ولكن لا يوجد دليل على انها تستعصى على الشفاء . لقد أظهرت التجارب أن الاسلام لا يستطيع أن يؤسس حكومة صالحة على الشعوب المتمدينة المسيحية ولكن أى دليل لدينا على أن الحالة لا تكون كذلك ، وانه يمكن تحقيق الاغراض السياسية اذا كانت الحكومة الاسلامية مسيطرة على شعب اسلامى حيث لا يوجد مناقضات الدم أو الدين أو العادات أو أساليب التعبير » .

ثم تكهن بالمشكلة التى تنشأ بين بريطانيا وفرنسا على مصر فقال :

« أعتقد أن اليوم الذى يشهد احتلالنا مصر يشهد كذلك توديعنا كل ما بيننا وبين فرنسا من العلاقات السياسية الودية . نعم انه قد لا يحدث عراك فى الحال ولا مظاهرات خارجية ولكن سيكون حقد ساكن متأصل كذلك الحقد الذى كانت تضمره أمريكا لنا أثناء الحرب الاهلية وهو الحقد الذى انطفأ الآن ، وغنى عن البيان أن الامم قوية الذاكرات . »

وقد ختم هذا المقال بدعوة حارة سأل الله فيها أن يفسد دسائس الوزارات ويحقق تحرير الشرق قال :

« ان الارض لم تنعم بمثل هذا الانقاذ من أجيال طويلة ولا يسعنا نحن الانجليز الا أن نحزن ونألم لأننا لم نقدم شيئا في هذا السبيل على أنه كيفما حدث فانى أرجو أن لا نقع فى شر من هذا القعود . وأخيرا لنا الرجاء بعدم الوقوع فى الخطأالعمد مضافا الى التخلى عن الواجب »

ولم يكن فى طاقتى الا أن اعطف على هذه التصريحات النبيلة التى كررها غلادستون فى خطبة أثناء الحملة الانتخابية فى سنة ١٨٨٠ لو أنها كانت قيلت باخلاص أو على قواعد السياسة التى اعتزم الاحرار أن يسيروا عليها اذا هم تولوا الحكم . ولكن غلادستون لم يوح الى فى ذلك الحين شيئا من الثقة وخيل الى أن الفرق بين المحافظين والاحرار كان طفيفا .

٢٠ مارس : تعشى معنا اليوم جون بولن سكرتير لورد ريبون الخاص . وقد تكلمنا فى الانتخابات وقلنا انه لا يوجد فرق يذكر بين المحافظين والاحرار ولن أعطى صوتى ، ومع أن سياسة سلسبرى ليست خسيسة كسياسة لورد غرانفيل أو غلادستون فانها أميل الى الالمانيين من أن ترضينى ولا شك

فى أن نزول المانيا فى الاستانة يكون أسوأ من أى شىء يستطيع الروسيون أن يفعلوه •

٦ ابريل . باريس ـ كانت الانتخابات قد انتهت وأسفرت عن أغلبية كبرى للاحرار ـ تناولت الفطور أنا وجودفرى وب بترز ـ ابن عمى فرنسيس جون كرى ـ ثم ذهبت الى السفارة شفيلد ـ سكرتير لورد ليون الخاص ـ مباه بحكومة الاحرار الجديدة وبما قاله لهرنجتون وبما قاله غرنفيل له • ومع أنى معتكف عن السياسة أظن أن نجاح غلادستون نكبة كبرى • والاحرار أقوياء جدا فلا مناص من أن نرى لهم تجارب كثيرة على الدستور البريطانى وستعطل الآن كل قوانين الالعاب والاراضى وكذلك سوف يطرأ على سياستنا الاسيوية من التعديل والتهذيب ما ننوء به • ولا يعرف الاحرار شيئا عن الشرق وسيجبنون عن مخالفة سياسة المحافظين كما يخافون تنفيذها كما هى الى النهاية • وسيعملون على اصلاح تركيا ومتى تعذر عليهم الاصلاح طاشت أحلامهم واندفعوا الى الحرب • وقد ساءنى هذا التغير شخصيا اذ لابد أن يستقيل ليتون مع الوزارة فتقوم الموانع بيننا وبين زيارة الهند فى الشتاء القادم ؛ ولكن هذه كلها أشياء تافهة فى سير التاريخ •

٩ ابريل ـ باريس : جاءنى خطاب من آن مفعم بالسياسة •

سيأخذ هارنجتون رئاسة الوزراة ويأخذ البحرية غوشن والمالية غلادستون • ولن يتغير شيء في السياسة الخارجية فستحتفظ بقبرص وتشاكس روسيا وتدار تركيا من غاليبولي ولا يعرف لورد ريبون محله ان كان سيكون له محل • ومازلت أسمعهم يصفون مدام توفيكوف (١) بأنها نجمة غلادستون السعيدة •• تعشيت مع آدمز سكرتير السفارة الأول وقابلت هناك رفرز ولسن الذي يذهب غدا الى مصر مع دايسي وسوليفان وسيقوم ولسن بمهمة التصفية •

٢٦ ابريل — عدت الى انجلترا حيث أصبح غلادستون موضوع حديث الناس وقد تقلد رئاسة الوزارة وأحاط نفسه بجماعة معدومة الكفاءة مثل تشيلدوز وبرايت وغرانفيل • وسيأخذ رانجتون الذي هو رجل من الطراز الثاني وزارة الهند ويذهب الى الهند ريبون ولا يزال هذا الترتيب الاخير سرا •

وعلى ذلك لم يفعل غلادستون شيئا جديا في سبيل تنفيذ السياسة التي كان يعظ بها غير ارسال ريبون الى الهند • فريبون هذا ليس بالرجل التابع ولكنه رجل جد واستقامة • وقد أخذ على عاتقه مهمة الاحتفاظ بالسلم على الحدود الهندية والشروع

---

(١) كانت مدام توفيكوف امرأة فتانة في خدمة الحكومة الروسية وكانت قد جاءت الى انجلترا قبل هذا التاريخ بقليل وزارتنا في كرابت وقد مكثت معنا اسبوعا ثم مضيت ووفقت الى فتح سياسي مع غلادستون •

فى سياسة جديدة الغرض منها تنفيذ المنشور الملكى الخاص بالحكم الذاتى بين الوطنيين . وقد أخذ معه غوردون كسكرتير خاص فأثار دهشة العالم الرسمى الذى كان يعد غوردون مجنونا . وعندى انه لم يكن يستطيع أن يبرهن على حسن نيته نحو الهنود بشىء أكثر من هذا .

على أن غوردون لم يكن من طرز السكرتيرين الخصوصيين حتى مع رئيس كريبون فلم يكد ينزل فى بومباى حتى استقال . ولا أحسب أن ريبون كان مخطئا فى اختياره ، بل أعتقد أن الاستقالة ترجع الى ثورة غوردون على جميع القوانين والعادات وسأصف حكم ريبون فى الهند عندما أصل الى سياحتى الهندية الثانية فى سنة ١٨٨٤ ، ويكفى أن أقول هنا انه اذا لم يكن أفاد كثيرا فذلك يرجع الى جبن الحكومة الانجليزية لا اليه ، وقد مرق مروق السهم فى الطريق التى رسمت له فى أول أمر ولكنه — كالطفل الذى يسبق اخوانه فيضحكون منه بالتباطؤ والوقوف ليجد نفسه منفردا — وجد نفسه لشدة دهشه يجرى منفردا وقد أخذ الوزراء يضحكون من مثابرته بعد أن غيروا آراءهم ولم يخبروه بذلك .

ولابد أن يكون قد تألم كثيرا عندما اضطر هو أيضا الى التسليم ، وقد أسندت جميع المناصب العليا الأخرى الى

الاحرار فتقلد لورد غرانفيل وزارة الخارجية وهو نبيل حسن، لطيف العشرة ، يجيد اللغة الفرنسية ولكنه أصم كســـلان . وسياسته من الطراز القديم ـ طراز التأجيل والتسويف الذى لا يعمل اليوم ما يستطيع أن يؤجله للغد ، أو كما كان يقـول سياسة التخبط وترك الاشياء تصلح نفسها ولم يكن ينتظـــر من مثل هذا الوزير أن يأتى بسياسة جـديدة والواقع انه لم يحاول جديدا فى تركيا أو مصر أو فى مكان آخر . فلم نرفض معاهدة قبرص ولا حولت الى أى غرض نافع واذا استثنينـــا الضغط الضعيف الذى بسط على الباب العالى فيمايختص بحدود الجبل الاسود واليونان نستطيع القول بأن كل قديم بقى عـلى قدمه .

وغاية ماحدث أن استدعى لايارد واضـع المعـــاهدة من الاستانة وعين غوشن مكانه وهو نفس غوشن الذى كان قبل ثلاث سنين من ذلك العهد قد أجرى التسوية الظالمة لحملة السندات وقومه ـ شركة غوشن وفرهيج ـ منهم والعمل الوحيد الذى يدل على أن وزير الخارجية كان يذكر حملة غلادستـــون على الاتراك ، وكل ما عمله ليبرهن على أن غلادستون كان مصيبـا كما كان دزرائيلى وسلسبرى مخطئين هو أنه خلافا لما تقضى به تقاليد وزارة الخارجية ولوائحها نشر برقيــة سرية كان لايارد

قد ناقض فيها جميع ما أعلنه فى برقياته غير السرية عن الحالة فى الاستانة .

وقد أوضح فى هذه الوثيقة المشئومة كل سوءات عبد الحميد وضعفه ولا سيما جبنه الشخصى ، وفصل ما لم يكن العالم الخارجى يعرف شيئا عن حقيقته من نظام الجاسوسية فى حكومته .

وكان نشر هذه البرقية خيانة كبرى للايارد ثم انه كان عملا طائشا لا تزال سياستنا فى الاستانة ترزح تحت أعبائه . وقد كان لايارد صديق عبد الحميد الحميم ونال من جوائزه ما لا يناله سفير أجنبى فوق العادة . وقد أظهر السلطان نفسه للايارد كما يظهر نفسه لصديق يستطيع الاعتماد عليه . فلما انكشف له ما اعتبره هو خيانة من لايارد فقدت انجلترا مودته الى الابد .

ومع ذلك وعلى الرغم من أن الموقف فى وزارة الخارجية لم يكن مشجعا صممت رغبة فى انجاح دعوتى أن أحصل على عطف رئيس الوزارة على مشروعاتى وقد شجعنى على ذلك تعيين أحد أصدقائى الحميمين سكرتيرا خاصا له وهو ادوارد هاملتون ـ والآن الجنرال السير ادوارد هاملتون ـ الذى قال

انه مهما يكن من تقلب الاحوال الخارجية فان عطف غلادستون على حرية الشرق لم يخف ٠

ولم أخف عن هاملتون شيئا من آرائى ومشروعاتى وقد ذكر لى أنه لا يعوزنى لاقناع غلادستون بها الا أن أنشرها كتابة وهناك وسائل أخرى اعتقدنا أنه يمكن التأثير بها فى غلادستون وهى مفصلة فى مذكراتى ٠

١٢ يونيو ــ أخذنى هاملتون لزيارة السيدة ل٠ التى تسكن بيتا كبيرا فى ميدان م٠ وهى ارلندية سمينة طيبة تبلغ الخمسين كثيرة الكلام والتحريض وليس فيها أثر للجمال ولا لأى شىء آخر ٠ وهى احدى نجوم غلادستون وكانت زيارتنا لها نصف سياسية حيث كان قد بدا لى أن ألقحها بآرائى العربية وألقح رئيس الوزارة بواسطتها ٠ وهى عطوفة على الذين رأتهم من العرب ولها اهتمام كبير بالشرق ٠

وقد قرأت لنا بحماسة رواية كانت تضعها على هيرود وكليوبترا ويوليوس قيصر ٠ وهى رواية كئيبة وان كانت قد أكدت لنا أن غلادستون معجب بها كل الاعجاب ٠

دعونا رولاند وجون بولن ولورلس أرليفانت للعشاء ٠ وهذا الاخير ذو شخصية جذابة وقد عاد توا من الاستانة حيث

كان يجتهد فى أخذ امتيـــاز من السلطان بأراض وراء الاردن ليستعمرها أبناء اسرائيل •

٢٢ يونيو ــ دعونا آل بلودن للعشـــاء وكذلك ادوارد هاملتون الذى هو الآن سكرتير غلادستون الخاص • وسيذهب بلودن غدا الى بغداد كمقيم سياسى • وقد زودته هو وهاملتون بآرائى فى المسألة الشرقية •

٢٦ يوليو ــ زارنا اللورد كالثروب وبرسىولدهام• وكبتن ليفيت فى كرابيت وعرضنا الخيل • وقال لى الاول انه أطلـع كثيرا من أعضاء نادى ركاب الخيل على خطابى الخاص بخيـل السباق العربية وانه سيعرض المسألة فى اجتماعات النادى خلال الشهر القادم وأنه حينئذ يحـق لنـا أن نقـدر النجاح • واذا استطعت أن أدخل انجلترا خيلا عربية أصيلة تتناســـل فيها واستطعت أن أحرر بلاد العرب من حكم الاتراك اكون لم اعش عبثا •

ظهر فى جريدة سبيكتيتور خطـابى الرابع عن « السياسة فى بلاد العرب الوسطى » وأعلنت مجلة فورتنيتلى رفيـو عن مقالى « وارث السلطان فى آسيا » • ذهبت بعد حين الى وزارة الحربية حيث أثنى لورد نورثبروك على خطاباتى ــ وهى أول خطابات أرسلتها الى الصحف ــ وكان السير جارنت ولسـلى

هناك وهو رجل قصير به نشاط ورعدة • ويشق على المرء أن يتصور انه قائد عظيم ، وقد ذكرته بزياراتنا لقبرص فقال :

« أظن لادى آن تكتب كتابا »

فقلت : نعم ولكننا لم نذكر فيه شيئا عن قبرص •

فقال : انكما لم تمكثا فيها وقتا كافيا •

فقلت : لقد ظننا أنه لا يحسن بنا أن نذكر شيئا عنها •

كانت مقالة « وارث السلطان فى آسيا » قد قصدنا بها كما أسلفت لفت نظر غلادستون الى آرائى وقد نجحت فى ذلك بواسطة هاملتون الذى عرضها عليه وان كان لم يعجبه منها الا ما كان قليل الأهمية فى نظرى كأن تصبح المقاطعات الارمنية ولايات مستقلة فى المستقبل •

وكانت الفكرة التى شرحتها هى أنه اذا كان قد منح الاستقلال لجزء من تركية أوربا فقد وجب أن نشجع الاجزاء الاسيوية الاخرى على الانفصال عن الامبراطورية على أن تؤلف من نفسها ولايات مستقلة وفاقا لجنسيتها •

وقد دعوت المستر غلادستون باسمه الى أن يحقق كلماته التى ألقاها حديثا وأكثر منها فى مصلحة حرية الشرق وذلك بأن يستخدم الاداة التى صنعها أسلافه ــ معاهدة قبرص ــ لا فى تحقيق مقاصد انجلترا الانانية الاستعمارية بل فى مصلحة شعوب

الشرق ، وكان من وراء نشر هذه المقالة فى مجلة فورتينتلى رفيو أن دعيت الى ديوان الوزارة فى دونتج استريت حيث أعطيت فرصة سرد آرائى وتأييدها أمام رئيس الوزارة . وسيتضح أن شخصيته لم تؤثر كثيرا فى هذا اللقاء الاول ولكننى تشجعت على استيفاء أوجه الرأى ومن ذلك الحين كان غلادستون يعتمد بعض الاعتماد على الآراء التى كانت تصله منى بواسطة هاملتون

٢٧ يونيو ـ مررت على أ . الذى وجدت معه كوينزبرى فأخذ فى الحال يشرح لنا آراءه الدينية فى حالة انفعال وتحمس قال ان هناك كائنا أعلى ، لا الها آدميا ، ووجدانا يهدى المرء فى بحثه عن الكمال . والقاعدة الرئيسية هى الثقة بالانسانية ، والواجب الرئيسى هو البلوغ بالجسد والروح الى أوج الكمال، ولم يكن الماركيز بالمتكلم الذرب اللسان فاقترح أن يتلو علينا شعرا بدلا من الشرح والبيان . وهو شعر قرضه ، وبينما كنا فى انتظار التلاوة دخل فيليب كرى ومعه شيخ قصير ذو أنف طويل وعينين سوداوين وهو ملكام خان السفير الفارسى . وقد جلسا بينما أخذ كوينزبرى يتلو الشعر وهو شعر مبهم وعظى متعصب يبتدىء بالمادة ،وينتهى بالانسانية . فلما فرغ تكلم الشرقى .

قال : ربما كان يهمكم أن تسمعوا حكاية دين أسس فى فارس قبل مضى عدة سنين وقد كنت زعيمه فى يوم من الايام . وهذه

الحكاية تريكم كيف تنشأ الديانات وأن مذهب الانسانية يصلح لآسيا كما يصلح لأوربا •

وعندى أن أوربا عاجزة عن أن تنشىء دينا حقيقيا يستولى على أرواح الرجال كما أن آسيا عاجزة عن أن تنشىء نظاما سياسيا • ان عقل آسيا خيالى كما أن عقل أوربا عملى • انسا لنتج فى فارس كل يوم ـ مسيحا جديدا ، وعندنا ـ ابناء الله ـ فى كل قرية ، وشهداء فى سبيل الله فى كل بلدة وقد رأيت بنفسى مئات من البابيين يتحملون الموت والتعذيب من أجل ايمانهم برسول لا تختلف تعاليمه عن تعاليم المسيح وقد صلب كما صلب المسيح •

ان المسيحية لا تعدو أن تكون دينا من مئات الاديان التى أظهرها بين الناس ايمان بعضهم بها • ولو أنها بقيت ايمانا أسيويا لزالت من الوجود منذ زمان طويل كما زال مائة مثلها من التعاليم الادبية التى وجدت قبلها وبعدها •

وقد أنشأت فى شبابى ـ كما أخبرتكم ـ دينا ، كان له فى وقت من الاوقات ٣٠٫٠٠٠ تابع • ولقد ولدت أرمنيا مسيحيا ولكنى نشأت بين المسلمين وطريقة تفكيرى هى نفس طريقتهم وكنت أخا فى الرضاعة للشاه ، فلما ولى الملك جعلنى رئيس وزرائه فلما بلغت العشرين كنت حاكما مطلقا على فارس • وقد رأيت

مساوىء الحكم وتدهور الرفاهية المادية فى البلاد فساورتنى فكرة الاصلاح • فذهبت الى أوربا ودرست فيهـــا نظم الدين والاجتماع والسياسة المتبعة فى الغرب وعرفت فيها نزعات فرق المسيحية المختلفة وكيفية تنظيم الجمعيات السرية والهيئـــات الماسونية وألفت مشروعا يجمـع بين حـكمة أوربا السياسية وحكمة آسيا الدينية •

وقد أدركت عبث الاجتهاد فى تنظيم فارس على مثال أوربا فصممت على الباس مشروعى اللباس الذى يفهمه الناس هناك ـ لباس الدين ـ فلما عدت جمعت زعماء طهران وأصدقائى ممن يرى حاجة الاسلام الى الاصلاح موجها توسلاتى الى نبـــلهم الادبى ومحتدهم •

وفى فارس كلمتان يعبر بهما عن الرجل ـ الانسـان مـن اللغة العربية وآدم التى هى اشتقاق فارسى • وتدل الـــكلمة الأولى على الرجل العبقرى ـ وهو نوع خاص من الحيوان أما الثانية فتدل على كائن أدبى ممتاز • فقلت لهم كلكم يفاخر بأنه أكثر من مجرد « آدم » وأنه لذلك « انسان » ولكى أمكنكم من أن تتزووا فى هذا الزعم أنصحكم بأن تفعلوا هذا وذاك • وقد وجدوا كلهم كلامى على حق وفى وقت قصير كان لى ٣٠ ألف تابع وتحت ستر الاصلاح الدينى نفذت ما استطعت مـن

الاصلاحات المادية ، فلنصائحى يرجع الفضل فى انشاء التلغراف وتنظيم مصالح الادارة • ولكن كثيرا من هذه الاصلاحات التى حاولناها قد أدركه الفناء ولم يكن لدى فى أول الامر نية انشاء دين ولكن أتباعى أرغمونى على أن أكون قديسا ونبيا فقد لقبونى « بالطيف المقدس » ولقبوا الشاه « بمصلح الاسلام » فوضعت كتابا ، « انجيلا » ، بدينى وأصر المتحمسون من أتباعى على أن أجىء بالمعجزات ، وأخيرا راع الشاه نمو قوتى التى صارت فى الحقيقة أعظم من قوته • فصمم رغم صداقتنا على قتلى كما صمم أتباعى على قتله •

وعاش شهرين فى خوف دائم من الاغتيال ثم تفاهمنا ، لقد كنت أحب الشاه وأحترمه فاستأذنته فى السفر وقد ودعنى أتباعى بالدموع وقبل الموالون أقدامى فذهبت الى الاستانة معتزما أن أحصل من السلطان على اذن بالاقامة فى بغداد وقد ذهبت اليها فعلا وصار لى فيها أتباع من الفارسيين المقيمين فيها ومن أهل بغداد الشيعيين ولكن الاتراك خدعونى واضطررت للرحيل قبل أن أتم عملى •

وقد طلب أتباعى فى فارس أن أعود اليهم ولكننى لم أعد لعدة أسباب •

فأولا : خشيت أن أموت لدين لا يؤمن به •

وثانيا : كانت صحتى منحرفة •

وثالثا : كنت قد تزوجت فكتبت الى الشـــــاه الذى رد باستعداده لتقليدى أى منصب فآثرت البقاء فى الخارج وقبلت منصب سفير لدى جميع الدول الاوربية •

وكان من الغرابة بمكان أن يسمع الانسان هذا الشيـــخ القصير ذا الملابس الأوربية يتكلم مجيدا الفرنسية الى أقصى حد راويا حكاية جد شرقية •

وقد ذهبت معه الى منزله فيما بعد ــ وكان يسكن على الجانب الآخر من هيدبارك ــ وفصل لى آراءه فى الشرق والغرب اللذين يعرفهما معرفة دقيقة فتركته معتقدا أنه أعظم شخصيــة التقيت بها فى حياتى ومؤمنا أكثر من كل وقت آخر بتفــوق العقل الشرقى فى الذكاء • وأى رجل فى أوربا كان يستطيع أن يجعل الانسان يشعر بأنه طفل •!

وقد كان لهذه المقابلة العرضية فى دار سيدة لطيفة فى بلجرافيا وفى قلب لندن أعمق تأثير فى نفسى وقد أحدثت ثورة فى آرائى الى حد ما • والى هذه المقابلة وما أعقبها من الاحاديث مع هذه الشخصية الفريدة يرجع الاعتقاد الذى غمرنى بعدذلك وهو أنى أخطأت فى اختيار نقطة الابتداع فى كل ما يختــص بآرائى فى تحرير الشرق واصلاحه واله اذا لم يكن بد من أن أعمل عمــلا

صالحا للعرب أو غيرهم من المسلمين الذين يحكمهم الاتراك فانه يجب على بادىء بدء أن أعرف أفكارهم الدينية حق المعرفة • وكنت الى الآن قد حللت بينهم كغريب عن آرائهم الجدية على الرغم من عطفي عليهم وان لم تكن ساورتنى فيهم آراء كالتى تعرض للمسيحيين •

لقد تعلمت أن أحترم الاسلام ولكننى لم أفهمه ولم أتناقش فى تعاليمـه مع أى عالم تشريعى أو خبير برأيه العصرى • وقد رايت فى الحال ضعف موقفى لا بل عبثه وصممت قبل أن أسير فى طريقى على أن أخصص الشتاء القادم لدرس نقط ذلك الدين الرئيسية على الأقل من وجهة تأثيرها فى السياسة •

وعلى هذا رسمت مشروعات الشتاء وكان رأيى أن أذهب الى جدة فى وقت الحج وهنالك أدرس على خير ما أستطيـع ثم أنتهز الفرصة التى قد تعرض لى لاستئناف العمل • وقد أوفق الى اختراق بلاد العرب مرة أخرى من الحجاز ان أمكن أو من اليمن الى نجد •

وكنت أحسب أنى قد أجد من الوهابيين العلم الذى يلقننى العقيدة العربية فى الدين من حيث تعارضها مع العقيدة التركيـة فيـه ، وانى قد أستطيع أن أقوم معه بحركة اصـلاح أضع أنا عناصرها السياسية ويضع هو العناصر الدينية • ومع تهورهذه

الفكرة صدقت بها فى ذلك الحين واعترافى بذلك يفسر لقـرائى المصريين كيف، اتفق أن سلكت الخطة التى سلـكتها فى القاهرة بعـد ذلك بعام .

وكنت متأثرا كذلك فى لندن خلال ذلك الحين بشرقى علامة آخر يدعى صابونجى ، وكنت قد تعرفت به كأستاذ فى العربية . وهو من أصل مسيحى مثل مالكام خان ، وقد أزمع مرة أن يكون قسيسا واشتغل فى نشر الدعوة فى روما ولكنه صد عن المسوح فى آخر الامر وكان كالسفير يعطف على الدين الاسلامى أكثر من عطفه على دينه . وكانت له شهرة عظيمة كعالم عربى وله خبرة تامة بالمسائل التى نصفها سياسى ونصفها دينى والتى كان المسلمون يتنافسون فيها فى ذلك الحين . وقد قام بالعمل الرئيسى المرحوم الدكتور بادجر فى القاموس العربى الانجليزى المسمى باسم الدكتور وكان يصدر فى لندن يومئذ جريدة عربية اسمها « النحلة » ويكتب فيها كل شهر عظة اسلامية للمسلمين على أساس الآراء العصرية الراقية أما تمويل تلك الجـريدة الصغيرة فكان لغزا وكذلك كانت أغراضـه من اصدارها وهى أغراض لم أسبر أعماقها قط .

وتتلخص روايته لتلك الاغراض فى أنه وكيل عن سلطان زنجبار وهو حاكم مستنير حر العقل والتفكير . ولـكنى ما

اقتنعت قط بهذا التفسير ، ولدى من الاسباب التى وقفت عليها بعدئذ ما يحملنى على الاعتقاد بأن أموالها وبعض وحيها السياسى على الاقل كان يأتى من الخديو اسماعيل . وكان اسماعيل فى ذلك الحين غاضبا على الباب العالى الذى غدر به أمام أوربا . وكانت ــ النحلة ــ تحمل على عبد الحميد حملات عنيفة وتتهمه باغتصاب لقب « أمير المؤمنين » .

ولا أذكر الآن هل عرفت أول مرة تاريخ الخلافة وموقفها الحاضر من صابونجى أو من مالكام خان ، ولكنها ــ وأنا على ما أنا عليه من معارضة الحكم العثمانى ــ أثرت فى من وجهة أهميتها بالنسبة لنوع الاصلاح الذى كنت أنشده الآن . وفى مذكراتى ما يثبت أنى أرسلت مذكرة الى غلادستون فى هذا الشأن ، ولدى خطاب من هاملتون يدل على أن الوزراء اهتموا بآرائى .

٣ يوليو ــ حفلة شاى فى منزل أ . ومن المدعوين رولاند ودنرافن واليفانت ، وقد خلوت بالاخيرين فى احدى الغرف فكانت النتيجة أن اتفقنا على أن نعمل معا فى المسألة الشرقية لكى نؤثر على الرأى العام البريطانى . وصممنا على أن نعقد اجتماعا تمهيديا عند رولاند يوم الخميس .

٨ ــ مررت ببرسى وندهام وأقنعته بمذهبى السياسى . وتلقيت زيادة فى الموضوع نفسه من المستر جيمس العضو فى

مجلس النواب • وتعشبيت مع دنرافن واليفانت واتواى وبرسى وندهام وهنرى براند وهوتيكر محرر مجلة « اليفانت هرالد » فى فندق النمر •

والغرض من ذلك أن نضع خطة للعمل بقصد التأثير فى الرأى البريطانى العام فيما يتعلق بآسيا • ولم نعمل شيئا معينـــا غير تأليف لجنة لتلقى الاخبار •

ذهبت بعد ذلك الى باريس حيث التقيت برجـــل يدعى روبرتسون سميث وكان حديثا فى الحجاز • وهو أستاذ معروف

١٣ يوليو ــ دعينا الى حفلة عند قريبة غلادستون ، وقـــد بكرنا فى الذهاب وقبل أن يأتى سائر المدعوين تحادثت مع الرجل العظيم عشرين دقيقة ففصلت له آرائى فى احياء الشرق ، فلاح لى انه اهتم بها على قدر ما يستطيع أن يهتم بها رجل يجهـــل المسألة •

وقد بدت لى ملاحظاته سطحية وكانت أسئلته مناقضة للاسئلة التى ألقاها على سلسبرى منذ ثلاث سنين • وكانت النار قـــد أطلقت على باخرة بريطانية فى نهر الدجلة فقال لى انه يخشى أن تكون هذه الحادثة دليلا على عداء لبريطانيا من ناحيـــــة العرب •

وقد اعتبر حالة الامبراطورية العثمانية « حرجة » وقال انه يرجح ان الشرق لم يمر به مثل هذا الوقت العصيب •

ولو أن معاهدة سان استفانو كانت نفذت لما تحرجت حال تركيا أكثر مما هى الآن • ومهما يكن من هذه الآراء أظن أنى نجحت فى ارضائه بفكرتين :

الاولى ــ هى أن بقاء الخلافة فى بيت عثمان ليس ضروريا•
والثانية ــ هى أن مدحت باشا كان أبله •

ولكن غلادستون لم يعقد النية على أمر بل عول على أن يسير على مقتضى الظروف حتى تقع الواقعة •

١٥ يوليو ــ حضرت اجتماعا عقده المشتغلون بالمسائل الاسيوية • وذهبت بعد الظهر الى الدماستون وهى حديقة أنيقة فيها منزل عصرى متعب ، وكنت أظن السير هنرى لايارد من أهل الدعاوى والخيلاء ولكنى وجدته لطيفا ومتواضعا بالنسبة لمركزه ، وهو يحسن التكلم ولا سيما فيما يختص بسياحاتنا ويفهم الشرق حق الفهم ، وقد ذكرنى بسكين ورولاند وكانا من السائحين فى عهده القديم وعندى أن مذكرات لايارد تبعث من الاهتمام واللذة ما لا تبعثه مذكرات رجل آخر من أبناء هذا الجيل ، ويتضمن ارتقاؤه من آفاق متجول بين الاكراد الى سفير بريطانى لدى الباب العالى كل ماف الحياة البشرية من عناصر الرواية •

١٧ يوليو ــ اجتمعت بالسير شارلس دايك وكيل وزارة

الخارجية فشرحت له فكرتى فى الذهاب الى نجد خلال هــذا الخريف مع عبد الله بن السعود ، ولشد ما دهشت حين خيــل الى أنه يوافق على ذلك ، ومع أن محادثتنا لم تكن طويلة فقد تركتنى مقتنعا بأن دايك رجل عظيم ٠

وكانت أسئلته جلية وفى الموضوع ٠ فلما فهم المسألة كتب مشروع برقية الى غوشن فى الاستانة ٠ ثم كلفنى أن أذهب الى تنتردن ــ مدير الخارجية الدائم ــ لمعرفة التفصيلات ٠

وكانت الفكرة التى استغرقتنى فى ذلك الحين هى الذهاب الى بلاد العرب وترؤس حركة يقصد بها اعادة استقلال العرب٠

ولم يكن مضى على السير دايك ســـنة ١٨٨٠ فى وزارة الخارجية الا بضعة أشهر على أنه قد قدر له أن يلعب دورا هاما فى المسألة المصرية سنة ١٨٨٢ ٠ وكان هو وصــديقه السياسى شمبرلين وبرايت يمثلون العنصر المتطرف فى الحكومة الجديدة٠ على أنهما لم يكونا من الطبقة التى يعين الوزراء البريطانيــون منها عادة بل كانا من رجال الطبقة المتوسطة ٠

وما زلت أذكر ذلك النفور الذى قوبل به تعيينه فى وزارة الخارجية حيث أن الدعاوى الارستقراطية تقليــدية بين الكتبة ولكنه لم يلبث أن أظهر معــدنه بالطريقة التى قبض بها عــلى عمله فى يده وبما هو أجدى معهم من ذلك ألا وهو استخدام

اصطلاحات فرنسية فى حديثه كما هى ميـــــزة موظفى وزارة الخارجية • لذلك لم يمض وقت قصير حتى وجد نفسه لامحتملا فحسب ولكن محبوبا •

أما عبد الله بن السعود المشار اليه فى مذكرتى فهو عبد الله ابن ذينيان بن سعود من بيت الامارة فى نجد • وكان قد وجد سبيله الى الاستانة ولجأ فيها الى السفارة البريطانية طالبـــا المساعدة ليحصل أو يستفيد مركزا سياسيا فقده فى البلاد •

وقد سمعت به من كرى ثم رميت الى هذه النتيجة وهى أنه قد تكون الفرصة التى أنشدها فى بلاد العرب ، ومن ثم طلبت الى وزارة الخارجية أن تصل بينى وبينه وتوافق على سـفرى المرسوم •

ولكن المشروع لم ينته بأية نتيجة بالرغم من موافقة وزارة الخارجية كما مر بك وذلك لأن لورد تنتردن عارض فى المسألة حين عرضت عليه قائلا ان المشروع اذا تم بموافقة وزارة الخارجية تعتبر المسألة كلها مهمة سرية ومثل هذه المهمات لايتفق مع تقاليد وزارة الخارجية ، وعلى ذلك انتهى المشروع •

وكانت أنباء هزيمة الجيش البريطانى فى قاندهار بواسـطة الافغانيين قد وصلت الى لندن فى ذلك الحين وضـاعفت حذر الوزارة فى دوننج ستريت •

وكانت الهزيمة ضربة حاسمة لليتون ولسياسة المجازفة وراء الحدود الهندية وهي السياسة التى استعارها لنفسه • وأظن انه لم يمر وقت ظهر فيه حظ بريطانيا الاستعمارى فى مثل الهبوط الذى ظهر فيه فى ذلك الحين •

٥ أغسطس ـ سافرنا الى بورتسموث لاستقبال ليتون وأسرته الذين جاءنا منهم برقية تنبىء بوصولهم غدا أو بعد غد ، وبورتسموث هذه مدينة غريبة على الطرز القديم ليس فيها فندق طيب الى الآن • ونزلنا فى فندق « النجمة ورباط الساق » وفى المنزل المقابل للفندق تمثال نصفى لنلسون ويستطيع الانسان أن يرى من النافذة سان لنسنت وفكتورى ومهما بلغ من قلة مبالاة الانسان بوطنه ـ والله يعلم أنى لست كذلك ـ فلا يسعه الا أن يتأثر بهذه الآثار الدالة على عظمة انجلترا •

ولم أكن حتى الآن قد أدركت تدهور حالها منذ ستين عاما الى الآن •

وأى صدمة كان يصاب بها نلسون وزملاؤه لو أنهم رأوا صحف اليوم تملؤها انجلترا فى محاربة تركيا بغير معاونة خارجية وبالآمال الدينية فى أن ترى فرنسا طريقا لمساعدتنا على اجتياز صعوبات فى الشرق بل هذه الأمور كانت تشغل فكرى فضلا عن اشتغاله بعودة ليتون ـ ليتون الذى اذا ساءت حال الهند ـ

فسوف يسجل عليه التاريخ أنه أول الخائنين من نواب الامبراطورية فى حكم الهند والمسئول عن ضياعها •

وغنى عن البيان أن هذه كلها أمور تورث الانسان حزنا لا يستطيع وصفه • ومع ذلك لم أكن واحدا من أولئك الذين أقاموا مناحة على سياسة ليتون وطريقة تنفيذها • فقد كانت ضرورية ونفذت بشجاعة ونجاح • وقد ظهر فى تاريخ تدهور انجلترا لا بشىء الا أنه هو نفسه ظاهر • ولم يكن فى استطاعته أن يصد تيار الحوادث فاندفع معها محاولا قيادتها على خير مايستطيع ولكنه لم يستطع أن يعمل أكثر من ذلك •

وعندى أن أسباب تدهور انجلترا أسباب واسعة لا يمكن القاء مسئولينها على رجل فرد أو حزب واحد • اننا نفشل لأننا لم نعد أمناء ولا عادلين ولا مهذبين وحكومتنا « لمامة » وليست هيئة ذات حصافة تؤيدها حصافة الأمة • وماوصلنا الى المركز الذى نشغله فى العالم الا بالمثابرة العظيمة والحصافة القويمة والنبل العظيم فلما انقرضت هذه الوسائل هبطنا الى مستوانا الطبيعى • وقد صنعنا الخير فى العالم خلال المائة عام الماضية وسنصنع الشر فيه خلال المائة عام القادمة ثم لا يعود العالم يسمع بنا بعد ذلك •

٦ أغسطس — بعد انذارات كاذبة أعطيت اشارة بوصول

الباخرة « هيمالايا ». وقد التقيت لحسن الحظ بجماعة صغيرة قادمة لتحية ليتون وركبنا الزوارق لمقابلتها فى عرض البحر وصعدنا اليها قبيلة «وزبور» وقد وقف ليتون على ظهرها بوجه لوحته الشمس وملابس رديئة عمرها أربع سنوات وفى فمه السيجارة التى كلفته حكم الهند . وهى أتفه الاشياء التى يعتمد عليها فى النجاح بعض الاحيان ! ولو انه استطاع أن يكف عن التدخين فى الوقت الملائم ، ويذهب مع زوجته الى الكنيسة لغفر له الجمهور الانجليزى كل مساوئه ولو تجاوزت الحصر . أما والحال كما هى فقد كان خطأه هذا ملازما له طول مدة حكمه وقد أثقلت موازينه حين أصابته الهزيمة السياسية .

على أنه ما كان يستدعى من الهند لولا هذه . على أنه لم يكن يعبأ بمثل هذه الشئون وقد وثق من أنه بذل أقصى جهده وأجاد وهو على حق فى ذلك . وقد غبطته على هذا الشعور كما غبطته على تهمة ذهابه الى داره فى نيوبورت .

ولما أوصلناهم البر وتناولنا معهم الشاى فى الفندق ودعناهم خير وداع وقد سمعت لادى ليتون تصيح من أعماق قلبها :

ـ آه ما أحب منظر أولئك السكارى الاعزاء الذين يسيرون فى الشوارع ، شد ما أحبهم .

وكذلك اتفقت آراؤنا على أن آخرة الامبراطورية البريطانية

قربت • فأما فيما يختص بى فما كنت أعبأ وقد حان حينها وأما ليتون فكان أكثر منى وطنية •

٢٩ أكتوبر ـ كرايت ، قضيت اليوم مع ليتون ، وقرأ لى دفاعه المعد لمجلس اللوردات ولاشك لدى فى أن الحق فى جانبه وستكون خطبته من أعظم خطب هذا العصر اذا صرح له بأن يبرز جميع المستندات الموجودة لديه • وقد اطلعت على هـذه المستندات فاذا مراسلات روسية أخذت فى كابول بنص معاهدة سرية بين شيرعلى والروسيين • وقد أخبرنى « شوفاروف » أنه مر بها حين كان يتهيأ للذهاب الى الهند واقترح عليه قسمة أفغانستان بين روسيا وانجلترا !

هذا آخر ما قيدته فى مذكراتى يومئذ على وجه التقريب ويسوءنى أنى أهملت القيد فيها مدة عامين بعد ذلك أى بعد سنة ١٨٨٠ ، ولم يصرح لليتون بأن يشرح قضيته فى البرلمان شرحا وافيا وكان لخطبته وقع فاتر فى مجلس اللوردات بعد أن سلبت أقوى نقطها •

على أنى سأقتطف هنا نبذة من خطاب كتبه الىّ فى ١٨ نوفمبر ويه يتم هذا الجزء من قصتى ولهذه النبذة قيمة خاصة من حيث انها تشرح حقيقة الحال السياسية يومئذ •

قال ليتون : قرأت فى احدى الصحف أمس أن عبد المطلب ،

شريف مكة الجديد ، الذى هو أداة بيد عبد الحميد يعمل بشكل نشاط وطبقا التعليمات التى ترد عليه من الاستانة لاثارة المسلمين علينا فى جميع أنحاء الارض وقد صارت الصيحة الآن : الخليفة فى خطر ، وعندى أن فرصة الاستفادة من العرب التى عرضت فى العام الماضى قد أعلنت تماما .

ولست أرى نتيجة لما فعله غلادستون سوى أنه أعدم نفوذنا فى الاستانة وحوله الى المانيا بغير أن يدبر وسيلة غيره لحكم العالم الاسلامى . ويلوح لى أن خطبته التى انتظرها الناس بفضول كبير ليست الا اعترافا ضعيفا بالفشل الساحق الذى أصاب سياسة الحكومة البريطانية فهم يطرحون اليونان وأرمينيا وكل شىء آخر باعترافهم أن أصابعهم أخذت تحترق بنار طرف العصا الذى قبضوا عليه منذ تسعة أشهر . ثم انهم يتخبطون فى سياستهم الارلندية بما لا يبعد معه أن تكون هذه المسألة سببا لسقوط الوزارة .

والحقيقة هى أن الامة ترفض السياسة التى تريد الوزارة تنفيذها فى كل مكان وأن الحكومة لا تجرؤ على تنفيذ السياسة التى تريدها الامة لرغبتها فى المحافظة على وعودها وتعهداتها . وعلى هذا كانت النتيجة أنه لا توجد سياسة معينة الآن . أمافيما

يختص بى فسأبقى ساكتا حتى يجتمع البرلمان وان كان قلبى يحترق فى صدرى •

ولم تكن الاسابيع الاخيرة التى قضيتها فى انجلترا من ذلك الخريف مشغولة بالسياسة فقد شغلت بنشر جزء من ديوان شعرى كان ليتون قد حرضـــنى على نشره ، وقد تركت له البروفات لتصحيحهـــا • وهذا هو الجزء الذى لقى اقبـــالا كبيرا ونفدت منه عدة طبعات للآن • وقد وضعنى هذا الديوان فى مركز أدبى كان له تأثير فى أعمالى السياسية التى أعقبت نشره

الفصل الخامس

زعمـــــاء الاصلاح فى الازهر

أبحرت من انجلترا فى خريف سنة ١٨٨٠ يوم ٣ نوفمبر الى مصر ولم يكن لى قصد غير الذهاب منها الى جدة للتعلم والدرس استعدادا لما عسى أن يعرض فى المستقبل من الفرص وقد خيـل الى مؤقتا ان مشروعاتى الأشد تدهورا ليست عملية فصار أقصى همى أن أحصل على المعلومات الكافية عن الدين الاســـلامى وميوله الحاضرة لعلى أصلح للعمل متى سنحت الفرصة وكنت قبل رحيلى من انجلترا اتفقت مع هاملتون على أن تستمـــر المراسلات بيننا مدة الشتاء وعلى أن أكتب له عن كل شىء قـد يستحق الاهتمام من حوادث سياحتى وهو ينقل منـــــه الى غلادستون ما يرى محلا لنقله وكان هاملتـــون قد أكد لى أن غلادستون لا يزال يهتم بآرائى . وكانوا ينظرون الى فى وزارة الخارجية كشىء خيالى أكثر منه جديا يمكن أن يكون له تأثير يذكر فى وجهة النظر الرسمية للمسألة الشرقية على الرغم مـــن وجود رئيس وزارة متطرف .

ولما نزلت فى القاهرة أدركت بعد بضعة أيام أنها قد طرأ

عليها تغيير كبير ، ولكنه تغيير حسن فيما لاح لى • فقد حل عهد المراقبة الانجليزية الفرنسية محل استبداد اسماعيل ونظمت المالية وأكثر فروع الادارة • وقد زرت بعض القرى التى عرفت بؤسها منذ خمس سنوات فوجدت أنه قد وضع حد لما كانوا يألمون منه • ومع أن الفلاحين كانوا لا يزالون فقراء رازحين تحت عبء الضرائب الفادحة فقد تبدد اليأس الذى حملهم على مكاشفتى بتاريخ شقائهم حين التقيت بهم أول مرة كرجل أجنبى يعطف عليهم •

ولما ذهبت الى الوكالة البريطانية سرنى أن وجدت فيها ماليت قنصلا جنرالا • وقد قص على تفصيلات الاصلاحات التى أدخلت والتى لا تزال منتواة مصبوغة بصبغة وردية وكان أكثر هذه الاصلاحات لم ينفذ بعد الا فيما يختص بالمالية • وقال ماليت : ان الأمور تتحرك ببطء ولكن بثبات فى طريق التحسين وان السحب التى لا يرى غيرها فى الافق هى أولا فى السودان الذى هو عبء باهظ على كاهل المالية المصرية وثانيا فى الجيش حيث ظهرت أخيرا شواهد التذمر • وقد أكثر من امتداح الخديو الجديد توفيق وأخذنى لزيارته فى القصر ومع انه لم يثر اهتمامى فقد وجدته يحسن التكلم الاحسان الخليق بالأمراء وفى الطاقة أن يستبين المطلع على الخطابات التى كتبتها

من مصر يومئذ صدى تفاؤل ماليت وقد كتبت الى هاملتــــون خطابا أقتطف منه النبذة الآتية :

تحسنت الامور كثيرا عما كانت عليه منذ خمس سنوات ومهما كانت نقائص حكومة انجلترا السابقة فلها أن تقــول انها نجحت فى مصر • وقد سمن الناس هنــا وظهرت عليهم أمارات الرخاء • وقد سمعت الناس الذين كانوا يشكون بحـــرارة منذ خمس سنوات يثنون على الخديو الجديد ويطرون الادارة ويلوح لى أن ولاة الامور هنا وقفوا فى طريق العمل وقداقتصروا على تغيير الأشخاص الذين كانوا مصدر الخطر ولم يغيروا فى الاساليب الا قليلا •

لقد كان التخلص من اسماعيل عملا سياسيا كبيرا ولاشك فى أن الرجل الحاضر يستقيم على الجادة مع قليل من التوجيــــه السديد • وعندى أن ثروة مصر وقلة نفقات حكومتها يضمنان نظام ماليتها متى قصرت مطامعها على توفير الرخــاء • على أنه توجد صخرة أوصخرتان فى الطريق، مثال ذلك حكم السودان الذى سوف يبقى مصدرا للانفاق وسببا للاحتفاظ بجيش • ولا أدرى لماذا تهتم مصر بحكم النيل فيما وراء الشلال الأول الذى هو حدها القديم •

أما القضاء على تجارة الرقيق فى أفريقيا فسار لا حاجة لأن

يحصل عليها غير البلاد الغنية . ولاشك فى أن سحب الرقابة والحماية التى تتمتع بها حكومة مصر يكون عملا سيىء الحظ والواجب أن يستمرا بضع سنوات على الاقل حتى ينشأ جيل أكثر تعودا على حسن النظام من الجيل القديم . ولشد ما تتوق نفسى لرؤية سوريا تتمتع بهذا النظام واذا نحن لم نعبأ بالصحراء استطعنا القول بأن سوريا قطر غنى وفى الطاقة أن تنفق على نفسها . ولكنها سوف تكون فى حاجة الى اعلان حماية أوربية بحالة لا تحتمل الشك حتى يمكن أن تستغنى عن الاحتفاظ بجيش . أما فيما يختص بحفظ الامن فتكفى لذلك قوة صغيرة ؛ ولست أشك فى أن القوم فى انجلترا يبالغون فى صعوبة المحافظة على الامن فى بلاد أهلها مزيج من المسلمين والمسيحيين ، فان الشقاء الذى بلوه جميعا فى خلال القرون الطويلة الماضية لم يبق أثرا لما فى صدورهم من الحزازات .

وقد أسعدنى الحظ من أول الامر فيما يختص بما أريد أن أتعلمه من شئون الاسلام وكان روجرز بك أحد المستشرقين الممتازين والذى عرفته قبل ذلك قنصلا فى دمشق قد جاء الى مصر وعين فى وزارة المالية فعرفت منه اسم عالم شاب متصل بالازهر يدعى الشيخ محمد خليل ومن ذلك الحين أخذ هذا الشيخ يتردد على يوميا لاعطائى درسا فى اللغة العربية وكثيرا ما

بقى يتحدث معى طويلا بعد الظهر ومن ثم ظهر لى، أنه أكثر من أن يكون مجرد أستاذ لتعليم لغة القرآن .

ولعل هذا الشيخ أعظم من عرفتهم من المسلمين صراحة واخلاصا وتحمسا وكان من طلاب تلك المدرسة الواسعة التقية التى كان استاذها يومئذ أستاذه الشيخ محمد عبده . وكان الشيخ خليل يبلغ الثلاثين من عمره فى ذلك الحين وهو رجل ذكى طيب مجتهد لا أثر فيه للتصنع . وكان كذلك تقيا فخورا بدينه مجردا من الرياء والتعصب المذهبى والتحفظ الذى يمليه الصلف على بعض المسلمين فى معاملتهم مع قوم لا يدينون بدينهم . لقد كان على نقيض هذا كله ، وكان سروره منذ اليوم الاول فى تحصيلى كل ما يعرفه ، وكان مذهبه فى التفسير أوسع المذاهب. وقد اعتبر جميع الديانات التى تنص على وحدانية الله صحيحة ولم تكن اليهودية والمسيحية فى نظره الا صورة مشوشة لذلك الدين الحقيقى دين ابراهيم ونوح ولذلك لم يسمح بسماع أى قدح فى أصحاب هذين الدينين لقربهم فى اعتقادهم من المسلمين. وعنده أن المثالب والحزازات انما هى ميراث الحروب القديمة ويعتقد أن العالم سيرقى الى حالة اجتماعية كاملة حيث تنزع الأسلحة ويتوثق الاخاء بين الأمم والمذاهب .

ويمكن تصور سرورى العظيم اذ شرح لى هذه الآراء وأيدها

يذكر التقاليد والقواعد معلنا أنها تعاليم ــ الاسلام الحقيقية ــ أقول : يمكن تصور سروري اذ وقفت على هذه الآراء التى هى قريبة جدا من آرائى ولا سيما حين أكد لى أنها من الآراء التى يعتنقها الجيل الحاضر من الازهريين وغيرهم من الطلبة فى العالم الاسلامى وحكى لى كيف نشأت هذه الآراء فى الازهر وكيف كان نشوؤها فى أول عهده بالتعلم فى تلك الجامعة الكبرى .

ومن أغرب ما يروى أن الفضل فى نشر هذا الاصلاح الدينى الحر بين العلماء فى القاهرة لا يعود الى عربى أو مصرى أوعثمانى ولكن الى رجل عبقرى غريب يدعى السيد جمال الدين الافغانى وهو رجل لم تتجاوز تجاريبه العالمية قبل حضوره الى مصر دائرة آسيا الوسطى وهو أفغانى المولد وتلقى تربيته الدينية فى بخارى .

وفى ذلك المكان السحيق وبغير أن يتصل بأى أستاذ من الذين يعيشون فى مراكز الافكار الاسلامية الراقية ، استنبط من درسه وتفكيره الآراء التى تعزى اليه اليوم .

وكانت حركات الاصلاح فى العالم الاسلامى التى قد انحصرت الى ما قبل ذلك فى التقهقر القديم ولم تسر فى طريق التطور . وقد جاء فى القرنين الاخيرين كثير من الواعظين الذين لم يزيدوا على أن علة ضعف الاسلام راجعة الى كف منفذيه عن السير على سنن السلف الصالح ووجد كذلك فى مصر وتركيا

مصلحون نظموا الادارة على الاساليب الاوربية لاغراضهم السياسية • ولكن هؤلاء أدخلوا اصلاحهم بالعنف والمنشورات التى حصلوا عليها من العلماء بالاكراه • وبغير أن يقفوا بينهما وبين قواعد القرآن وتقاليده • وكانت الاصلاحات السياسية تأتى من الطبقة العليا ولم يزل حكم الرأى العام الرشيد قاسيا عليها • أما نبوغ جمال الدين ففى اجتهاده فى حمل الممالك التى وعظ فيها على أن تعيد النظر فى الموقف الاسلامى كله وأن تستبدل التمسك بالقديم بالتحرك الى الامام حركات أدبية منسجمة مع العلم العصرى • وقد مكنه علمه التام بالقرآن والسنة من اقامة الحجة على أنهما لو أحسن تأويلهما معا لكان الاسلام كفءا لاحداث تطور راق عظيم •

ولما أتم دروسه فى سنة ١٨٧٠ وكان يومئذ يبلغ الثلاثين من العمر اخترق الهند الى بومباى وانضم الى الحج فى مكة • وبعد أداء الفريضة حضر الى القاهرة ثم ذهب منها الى الاستانة • ولم يلبث فى هذه الزيارة الأولى أكثر من أربعين يوما فى مصر ولكنه وجد وقتا كافيا لتوثيق عرى الصداقة مع نفر من طلبة الازهر ولوضع أساس التعاليم التى شادها بعد ذلك •

أما فى الاستانة فما أسرع ما نبه ذكره بما أوتيه من الفصاحة والتبحر فى العلم • وقد عين فى منصب دينى سام وأخذ يلقى المحاضرات فى جميع الموضوعات لسعة معارفه ووفرتها •

وكان حاد الذكاء قوى الحافظة حتى انه كان يستطيع أن يقرأ كتابا برمته فى أى موضوع ثم لا يشرد من ذهنه كلمة منه بعد ذلك وقد ابتدأ بتعليم النحو ثم علوم اللغة ومنها انتقل الى الفلسفة والدين وقال ان الاسلام السنى يوفق بين نفسه وبين أرقى ما تصبو اليه النفس الانسانية وما تحتاج اليه الحياة العصرية •

واذ كان سنيا صحيحا محيطا بالحوادث قد أصغى اليه الناس باحترام ، ثم لم يمض وقت قصير حتى صار له أتباع من صغار الطلبة، وكان يوحي الشجاعة بجرأته وينقدالمذاهب المسلم بها حتى مذهب أبى حنيفة فيقبل الناس نقده بما لا يمكن أن يتيسر لرجل غيره وكان همه أن يطلق العقول من الاغلال التى قيدتها طول الاجيال الماضية ويقيم الحجة على أن الدين الاسلامى ليس شيئا ميتا ولكنه نظام يصلح للانسانية المتطورة فى جميع العصور ، فهو لا يأبى التطور ، وكل هذا يماثل ما حدث من احياء المسيحية بأوربا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر على أن الغريب فى شأن الاسلام الغريب هو أن يعود الفضل فى نشوء روح النقد بين أهله الى رجل تربى فى بلاد رجعية كآسيا الوسطى وتعلم فى جامعة سحيقة كجامعة بخارى •

ولقد كانت الفترة التى قضاها الشيخ جمال الدين فى الاستانة

زاهرة ولكنها كانت قصيرة فقد كان رجلا غير مقيد وكان كأكثر الافغانيين لا يحفل بالتقاليد المتبعة فى خطاب العظماء وهى التقاليد التى كان لها أعظم اعتبار فى عقلية العقل التركى ، ومع انه كان محوطا برعاية على باشا وفؤاد باشا اللذين رأيا فى تعاليمه تأييدا لاصلاحهما السياسى ضد قدماء العلماء وقع سوء فهم بينه وبين السلطات الدينية العليا ولا سيما فيما يختص بمسلكه الشخصى نحو شيخ الاسلام فلم تجد هذه السلطات سبيلا لان تجد فى محاضراته محلا للمؤاخذة ولم يمض وقت قصير حتى اقتبست من أقواله فقرات أخذتها دليلا على الكفر والزيغ .

فلما أجاب عن ذلك بأنه مستعد لأن يناقش المسألة علنا مع متهميه الكبار فزعت الدوائر الرسمية ورعبت وكان هذا التحدى قد أحدث حركة كبيرة بين « السفطاء » فكان الشبان منهم فى جانب جمال الدين . وظهر أن النزاع قد يؤدى الى عواقب وخيمة .

ومن ثم أكره الساسة على الذاره ووجوب العودة الى مصر والبقاع المقدسة فعاد الى مصر فى ظل هذا الاضطهاد الدينى ، ولكن بعد أن بذر بذور النقد التى أثمرت بعد عدة سنين اذ أجمع السفطاء على المطالبة بالاصلاح الدينى . وهذا هو الجزء

الدينى فى الحركة السياسية التى قدر أن تنتهى بالثورة التى قام بها مدحت باشا فى سنة ١٨٧١ •

وقد تقدمته شهرته الى الازهر حين عاد الى القاهرة ١٨٧١ وكانت مصر فى عصر دينى مظلم لأن فساد الحكم ولا سيما فى عهد اسماعيل كان قد لوث جميع الطبقات وأطفأ جذوة الشجاعة والاستقلال فى صدور العلماء ومع ذلك كان فضول الناس يزداد حول جمال الدين •

وقد رحب به الاصدقاء القليلون الذين كان قد تركهم فى مصر • رحبوا به سرا ان لم يكن علنا ثم مالبثت النار والغيرة اللتان يتدفق بهما حديثه أن جمعتا حوله طائفة من الشبان المريدين كما حدث فى الاستانة • أما أهم هؤلاء المريدين فهو الشيخ محمد عبده الذى قدر له أن يلعب فيما بعد دورا هاما فى الشئون العامة والذى هو الآن مفتى الديار المصرية ، والشيخ ابراهيم العجمى الصحفى المعروف •

والى هذين استطاع الشيخ أن يفضى بكنوز علمه بلاتحفظ وأن يغرس فيهما روح النقد التى طبع عليها وينفث فيهما كثيرا من جرأته •

والحق أن الشجاعة كانت ضرورية لكل رجل يتكلم فى مصر بصراحة •

ولم يكن اسماعيل يسمح بأقل معارضة وكان حكمه مطلقـا حتى فقدت الألفاظ المستقلة من أفواه الرجال • ولم يكن يجرؤ على الشكوى الا الفلاحون المهذبون فى قراهم أو غيرهم ممن لا يعتد بهم من الوجهة السياسية أما السلطات الدينية العليـا والموظفون الكبار فقد طال سكوتهم على الظلم وآثروا الموافقة ما داموا يحصلون على أنصبتهم من الاسلاب •

وعلى هذه الاحوال السيئة ، ان عقلية أو أدبية ، أشرقت تعاليم جمال الدين الجريئة كما يشرق الضوء الغريب وضمنت له شجاعته مؤقتا اصغاء الناس بغير تدخل من جانب الحـكومة وقد يكون الفضل فى ذلك الى أن العراك الذى أثاره جمـال الدين فى الاستانة قد بره فى نظر اسماعيل أو يكون اسماعيـل قد اعتبره أضأل من أن يستدعى القمع أو ربما كان قد فكر ـ كما فكر على باشا وفؤاد باشا ـ فى استخدام التعاليم الجديدة فى حربه الطويلة مع القناصل الاوربيين •

ومهما تكن الحقيقة فى ذلك فقد أبيح لجمال الدين أن يصل محاضراته خلال السنوات التى بقيت من حكم اسماعيـل ولم يلق القبض عليه الا فى عهد توفيق وبعد انشاء المراقبة الانجليزية الفرنسية • وقد أرسل بلا محاكمة الى الاسـكندرية ونفى من القطر ، ولكنه كان قد أدى رسالته واعتنق كل ذكى نبيـه فى

الأزهر قواعد الاصلاح الحر على الأسس الدينية • أما عباءة المصلح نفسه فقد ألقيت على خير عاتق يحملها بل لا أغالى اذا قلت انها ألقيت على عاتق أقوى من عاتق صاحبها الأصيل • وما كل معلمى اللغة العربية «الشيخ محمد خليل» ولا يمكن أن يكل من الاستفاضة فى وصف أستاذه الروحى — الشيخ محمد عبده — ووصف كفاءاته العقلية وقد خلف هذا جمال الدين فى زعامة حزب الاصلاح الحر فى الازهر •

وقد وجدت بين أوراقى مفكرة ذكر فيها أن معلمى الفاضل أخذنى لرؤية الاستاذ الشيخ محمد عبده فى منزله الصغير بحى الازهر للمرة الاولى فى ٢٨ يناير سنة ١٨٨١ وهذا يوم يجب على أن أميزه على سائر الايام لأنه فتح لى باب صداقة بقيت الآن نحو ربع قرن مع رجل من أحسن وأحكم الرجال العظام ويجب أن لا يتوهم أحد أنى اذ أستخدم هذه الالفاظ ألقى القول على عواهنه أو أبالغ مثقال ذرة ولكنى أقولها معتمدا على معرفتى بأخلاقه فى ظروف مختلفة وأحوال صعبة فقد عرفته فى أول الامر معلما دينيا ثم قائدا لحركة الاصلاح الاجتماعى ثم زعيما أدبيا للثورة السياسية ثم أسيرا فى أيدى أعدائه ثم منفيا فى أقطار أجنبية مختلفة ثم تحت مراقبة البوليس فى القاهرة حين ألغى نفيه ، وأخيرا حين سودته مواهبه العقلية ونصرته من جديد

اذ استأنف محاضراته فى الازهر وعين مستشارا فى محـــكمة الاستئناف ثم عين فى أواخر أيامه مفتيا للديار المصرية فحل فى أسمى مقام دينى وقضائى فى مصر •

وقد كان الشيخ محمد عبده حين رأيته لأول مرة فى سـنة ١٨٨١ فى الخامسة والثلاثين رفيع القامة أسمر اللون نشيطـــا يلوح ذكاؤه السريع فى عينين تنفذان الى الأعماق وهيئة صريحة ودية توحى بالثقة فى الحال •

أما فى اللباس والمظهرفشرقى بحت يلبس عمامة بيضاءوقفطانا كما يلبس شيوخ الازهر ولم يكن يعرف حينئذ لغة أجنبية أو أية لغة أخرى غير لغته وقد بحثت معه بمساعدة محمد خليـــل الذى أعان بفرنسيته الضعيفة عربيتى فى جميع الموضـــوعات التى بحثتها قبل ذلك مع محمد خليل وحصلت بهذه الواسـطة على آراء واسعة فيما يختص بتعاليم المسلمين الاحرار ومخاوفهم الحاضرة وآمالهم فى المستقبل وقد دونت هذه الآراء فى كتاب طبعته فى آخر السنة باسم « مستقبل الاسلام »

وكان الشيخ محمد عبده يصر على أن الاسلام فى حاجـة الى الاصلاح الدينى الحقيقى وليس فقط لهيئة سياسية دينية • أما فيما يختص بالخلافة فكان يشاطر كل المسلمين المستنيرين رأيهم فى وجوب اصلاحها وتحديدها على قواعد روحية • وقد

شرح لى كيف يؤدى حسن استخدام سلطتها على وجه شرعى الى مساعدة حركة الرقى الادبى وكيف أن أصحاب هذه الخلافة أهملوا بحيث صاروا غير أهل لامارة المؤمنين • والواقع أن الاسرة العثمانية لم تحفل بالخلافة مثقال ذرة خلال القرنين الماضيين ولم يبق لها حق ولا سلطان ، حق السيف وسلطانه •

على أنهم مازالوا أقوى الأمراء المسلمين ومن ثم يستطيعون القيام بالشطر الاكبر من العمل لخير الجميع أما اذا لم يمكن حملهم على القيام بواجبهم فلا مناص من البحث عن أمير آخر للمؤمنين ولم يكن ثمة شك فى حاجة الاسلام الى أسس سياسية • وكانت آراؤه مشربة بروح الاعتدال وهى آراء زاد فى افحامها أنها عملية ورشيدة •

وفى أثناء الشتاء ذهبت وعقيلتى لزيارة جدة حيث جمعت كثيرا من المعلومات التى كنت فى حاجة اليها عن نزعات الطوائف الاسلامية المختلفة وأحسب أن تلك كانت خير بقعة للاوربى الباحث عن تلك المعلومات فقد تعرفت فيها بواسطة المدعو يوسف أفندى قدسى بعدد من الأشخاص المسلمين الذين تهم معرفتهم

وكان يوسف افندى هذا متصلا بالقنصلية الانجليزية • وكان بين الذين تعرفت اليهم الشيخ حسن جوهر وهو من خيرة علماء الصومال الاذكياء والشيخ عبد الرحمن محمود من جهة

حيدر آباد بالهند والشيخ مشعث المكى وعدد من أعضاء أسرة بسام فى عنيزة بنجد وهو شيخ بدوى متعلم تعليما راقيا من جنوبى مراكش •

ولم أقم فى جدة سوى بضعة أيام فقد أصيبت بحمى الملاريا المنتشرة جدا فى تلك الجهات وحال هذا المرض دون فكرة التعمق فى داخلية البلاد • ولقد وجدت أن الوقت لم يكن ملائما أيضا لتحقيق تلك الفكرة نظرا للعداوة الجديدة التى أبدتها السلطات فى مكة حيال انجلترا • فان السلطان كان قد بدأ فعلا فى جعل كلمته مسموعة بصفته الزعيم الدينى للمسلمين وهو شىء لم يكن معروفا منذ عدة أجيال لاسلافه العثمانيين بل انه أصبح شديد الغيرة على نفوذه فى بلاد العرب بصفة خاصة بينما أن نزاعه مع حكومتنا جعله أكثر ارتيابا فى النفوذ الانجليزى منه فى أى نفوذ آخر • وقبيل زيارتى لجدة بعدة أشهر فقط أراد أن يظهر مقدار سلطته فى مكة فعين لها شريفا ذا نزعات رجعية شديدة ضد الاجانب •

فالشريف الاسبق حسين يدعون انه كان رجلا ذا أفكار حرة ومعروفا بصلاته الودية مع القنصلية الانجليزية فاستحق لذلك غضب السلطان ومات أشنع ميتة • وليس من المستطاع الجزم اذا كان ذلك فى الحقيقة بتدبير السلطان أو بواسطة الوالى

ولكن الناس فى جدة عندما كنت فيها كانوا على كل حال يعتقدون بأن للسلطان دخلا فى القتل .

وقد وقفت على تفاصيل مقتل الشريف حسين من وكيله فى جدة المدعو عمر ناصف الذى عزا القتل للسلطان بلا مــــراء . وهذه الرواية هى أنه فى آخر موسم الحج ركب فى صحبـــة الحجاج قاصدا جدة ــ كما كانت العــادة ــ لتوديع الحجاج والدعاء لهم . وقد كان سفره ليلا . وفيما هو يوشك أن يدخل بصفة رسمية الى الميناء على ظهر جواده بصحبة الحرس الذى كان بعضه عثمانيين وبعضه الآخر أعراب تقدم اليه أحد الحجاج الافغانيين فى ملابس رثة كما لو كان يطلب صدقة وطعنه فى بطنه وبالرغم من هذا الجرح فان الشريف ظل راكبا الى أن دخل دار وكيله عمر ناصف ومات فى اليوم نفسه بسبب ــ كما سمعت ــ عدم تضميد هذا الجرح غير المميت تضميدا كافيا

وكانت هناك ظروف عديدة تفرق بين أن يكون الاعتــداء حادثا مشوها للتعصب الدينى أو حادث قتل عادى . ولم يكن القاتل من جماعة الشيعة كما تبادر الى الذهن باديء ذى بدء بل كان من متطرفى السنيين .

وقد فاه بعــد القبض عليه بعبارات تدل على آنه كان يعتبر

نفسه مكلفا بفعل ما فعل فانه قال عندما سئل عن السبب الذى دعاه لارتكاب هـــذه الجريمة :

ـ يحكى أنه كان يوجد فيل، وهو أكبر الحيوانات الموجودة فى الغابة ، فجاءته نملة وهى أصغر حيوان فى هذا الوجود فعضته وأماتته .

ولم تكن هناك أيضا محاكمة علنية للجانى فقد أعدم بعد اعتقاله بأربعة أيام كما اتخذت الاجراءات الممكنة لاخفاء المسألة .

وكان الشريف عبد المطلب خلف الشريف حسين من بيت آل زيد وهى الاسرة المنافسة لاسرة الشريف حسين وكان أيضا من أشد الرجعيين المسلمين تطرفا ، وقد كان طاعنا فى السن بحيث انه كان شريفا لمكة عند ما كانت فى أيدى الوهابيين الذين انضم الى مبادئهم ولو فى الظاهر .

والآن وقد تقدمت سنه أعيد الى ذلك المنصب بلقب أمير ليقوى حركة الجامعة الاسلامية التى كانت سائدة فى الاستانة. وفى عهد الشريف حسين كان فى استطاعة أى فرد انجليزى أن يجتاز الحجاز من أدناه الى أقصاه بدون أى اعتداء .

بل ان «درتى» والأستاذ روبرت سميث حصلا على مساعدته وحمايته ، والآن فان أى محاولة من هذا القبيل تعتبر خطرة جدا وفى الواقع ان السائح الفرنسى «هيبر» فقد حياته لمحاولته اجتيازا

الحجاز فى السنة نفسها . ثم عدنا الى السويس فيما بعد ومن ثم الى سوريا عن طريق الاسماعيلية .

وفى أثناء اجتيازنا الاراضى المصرية وصلنى الخطـابان التاليان من هملتون ردا على الخطابين اللذين أرسلتهما اليه . وأهمية الخطابين هى فى أن اهتمام الحكومة بالمسائل الشرقيـة بدأ يتحول الى المشاكل الداخلية كالتى كانت فى ايرلندا . ومن المدهش والمحزن أن نلاحظ كيف أن الضرورة ـ كما سمـاها الاحرار وهم فى الوزارة ـ فى قمع الوطنية والضغط على الحرية فى ايرلندا أحدثت رد فعل فى الشعور الشريف الذى أبدلوه به ـ قبل دخولهم الوزارة ـ عطفا على الحرية الوطنية فى الشرق .

ويظهر أن غلادستون ـ الذى كانت ميوله بلا ريب منجهة نحو منح هاتين الجهتين الحرية انقاد لزملائه الأحرار فى الوزارة الذين كانوا مصممين على السير به فى الطريق التى لا تلائم نزعته وكانت ايرلندا طول العامين التاليين العقبة الكئود فى سـياسته وسأبين فى موضعه أن قرار القمع الذى تقرر فى سنـة ١٨٨٢ استعماله فى ارلندا كان فى نفس مجلس الوزراء الذى قـرر أيضـا اسـتعماله فى مصر .

فالاشتراك فى سوء الحظ بين هاتين البـلدين كان مأسـاة

كبيرة لا لمصر وارلندا وحدهما بل لشرف انجلترا • وها هو الخطاب الاول :

رقم ١٠ دوننج ستريت

لقد تجاسرت على عرض خطابك على عدد من الذين أعلم أنهم يرغبون فى قراءته ومنهم اللورد غرانفيل وريمرز ولسون وبمروك وهارى براند ، وأظن أن الخطا بسر ريفرز ولسون بصفة خاصة ، لأن ريفرز ينظر بعين الابتهاج الى ما صنعه فى مصر • وقد زاده سرورا أن يسمع من مصدر مستقل بأن العمل الذى كان له يد كبرى فيه قد أنتج هذه النتيجة الحسنة وانى أخشى من أنه يعتبر أن نصيبه فى ادراك هذه النتيجة لم يقدر بعد حق قدره •

وما برحت ايرلندا تحتكر كل وقت الحكومة ومجهودها ، وأخشى أن يكون من الصعب المبالغة فى الحالة الخطيرة السائدة الآن فى ذلك البلد البائس • وانى لأحمد الله على أننا أصبحنا على مقربة من عودة انعقاد البرلمان • وسيظهر اذا كانت الحكومة بالغت أو لم تبالغ فى التذرع بالصبر والتمسك بحبل الاناة وليس لى أن أبدى رأيا فى هذا الصدد • على أن الحالة لهى بلا جدال عار على هذه البلاد ــ انجلترا ــ والحكومة ترى نفسها مضطرة الى العودة الى الخطة العتيقة خطة العنف والقمع • وقد

بدأت أشعر ـ بالرغم منى ـ بأن ايرلندا ليست صالحة الحكومة الدستورية •

وانا مهما سعينا لازالة المظالم المشروعة فليس من المستطاع استتباب السكينة فيها بدون العود الى ما يشبه سياسة كرومويل وانه لعمل تنفطر له الافئدة • فاذا لم يحدث تغيير غير عادى فسنصبح فى هذه البلاد معرضين لسقوط وزارة تلو الاخرى ، وهكذا فى خلال بضع السنوات القليلة المقبلة ، وانى لشديد التشاؤم بالنسبة للمستقبل •

وبودى لو استطعنا أن نطبق على ايرلندا شيئا من التطور كالذى رأيته فى مصر ، ان ايرلندا البائسة هذه كادت تقضى على الحكومة قبل الاوان من حيث السياسة الخارجية • ولا يزال يؤمل أن يستطيعوا ايجاد مكان لليونان فلا يدعوا مسألتها تصبح نهائيا فى زوايا النسيان والا أصبح من المحتم نشوب الحرب بين تركيا واليونان • ان اليونان لا تستطيع وحدها أن تكافح تركيا وقد يعنى دخول تركيا الحرب رفع لواء الثورة العامة فى الروملى الشرقى وفى مقدونية • ولا أزال أؤمل أن توجد تسوية لمسألة حدود المملكة اليونانية بتدخل الدول العظمى باعطائها قطعة أرض صغيرة فى الشمال وربما أيضا بتسليمها جزيرة كريد • ولاجدال فى أنه يلزم ايجاد وسيلة من الوسائل لتقوية اليونان وتوسيعها

ليس لحفظ السلام فى الشرق مؤقتا فقط بل لوضع الاساس، لما عساه أن يكون قوة مضادة للعناصر الاسلامية •

وهاك نص الخطاب الثانى :

رقم ١٠ دوتنـــج ستـــريت

تحريرا فى ١١ فبراير سنة ١٨٨١

لقد تناول الوزراء خطابك على أثر وصوله • وقد تلوت بعض فقراته للمستر غلادستون وقد أتيح للورد غرانفيل والمستر غوشن أن يقرآه بنفسيهما وباهتمام على ما سمعت •

أجمع السفطاء على المطالبة بالاصلاح الدينى • وهذا هو الجزاء

أما اللورد غرانفيل فأرسل صورة من الملاحظة التى ختمت خطابك بها وهى الخاصة بشئون الهند الى لورد هارنجتـــون وأرجو أن لا أكون خنت الثقة التى وضعتها فى باطلاع الدوائر الرسمية على معلوماتك المذكورة فى الخطاب • وقـد أطلعت هارى براند عليها أيضا • ولقد قامت فى وجه والده ــ رئيس مجلس العموم ــ مصاعب لم يقم مثلها لأحد من أسلافه فى كرسى الرئاسة ، ولكنه خرج من هذا النضال فائزا • فاذا صرفنا النظر عن جلسات المجلس التى لانظير لها والتى استمرت أياما وليالى ووقفه العدد العديد من الاعضاء المشاغبين فقد مررنا فى دور برلمانى مهيج ، وانى لشديد الأمل باختفاء شبح العرقلة الناشىء

عن الشغب الخاص بالاراضى الارلندية • فاذا ما صادق البرلمان على الاجراءات القمعية أو بالاحرى بالاجراءات الواقية وصار المشروع العادل التام الجرىء الخاص بالأراضى قانونيا فلن نصبح مهددين بالكابوس الارلندى فى القريب العاجل على كل حال •

وفى الوقت نفسه كان اهتمام الجمهور فى خلال الاشهر الماضية موجها طبعا الى تلك المملكة القاحلة ولذا لم يعن الجمهور كثيرا بالشئون الخارجية • وعلى كل فالمسألة اليونانية لم تصبح نسيا منسيا •فاللورد غرانفيل مازال يشد طرف الحبل بمهارة تامة وبنجاح كبير على ما أعتقد ، والعقبة الكئود طبعا فى سبيل التقدم بنجاح فى هذه المسألة المعقدة هى الدور المخزى الذى لعبته فرنسا التى بعد أن هددت وتوعدت خفت صوتها وبردت حرارتها •

وعلى كل فان بسمارك قد عمل على أن يتولى الأمر بنفسه وذلك بعرض اقتراح جديد قد يؤدى الى نتائج حسنة • فأول شرط تتمسك به الدول العظمى هو طبعا الاحتفاظ بالسلام الاوربى فلولا أن نشوب الحرب بين تركيا واليونان يؤدى حتما الى حدوث القلاقل والقتال فى بلغاريا والروملى الشرقى، ولولا أن اليونان لا تستطيع وحدها مكافحة تركيا لكان التمهيد الطبيعى

لرفع اليونان نفسها الى صف الدول الاوربية هو الالتجاء الى السيف •

فالرومانيون الحديثون ما كانوا لتكون لهم ملوكية متحدة لولا أنهم حاربوا فى سبيلها ولا محل لأن يشكو حديثو اليونان اذا رأوا أنفسهم مضطرين لمواجهة أمثال تلك المصاعب والمخاطر •

ولكن بصرف النظر عن الحرب التى يلزم أن يخوضها اليونان فان هذه قد أصبحت تحت كنف أوربا فلها الحق فى ألا تتغاضى أوربا عنها الآن • فاذا لم يكن تنفيذ حكم برلين سلميا ـ وهذا يظهر أنه مسلم به نظرا لعمل فرنسا ـ فان المنفذ الوحيد هو ايجاد صفقة معادلة لليونان وأقصد بذلك اعطاءها تعويضا فى جهة أخرى عما لم تأخذه مثل تساليا وأبيبيروس وهما الاقليمان اللذان تقبل أخذهما واللتان يمكن الدول فيما بينهن مساعدتها على الحصول عليهما وربما كان اقتراح من هذا القبيل انحرافا جديدا وأخشى من العلاج الذى تشير به ـ ولو انه أنجع وأكثر نجاحا ـ هو من الشدة بحيث لا تستطيع أوربا أن تقبله •

ولا أذكر أنى كتبت فى خطابى ما يبرر كل هذا الحديث الطويل عن اليونان التى لم تهمنى بصفة خاصة فى ذلك الوقت • وان عبارة الخطاب لتشبه لهجة المستر غلادستون نفسه الى حد

أننى أظن أنه لابد أن يكون أملى هذا الخطاب والخطاب الذى سبقه • لهذا رأيت أن أثبتهما بنصيهما ونظرا لاسهابه فى شرح المصاعب المملوءة بها سياسة اليونان فقد لاح لى انه — اذا حدث عصيان على الحدود اليونانية ربما شجع فى الوقت نفسه عصيان العرب فى سوريا •

وكانت رحلتنا من الاسماعيلية سارة • فبعد أن عبرنا القناة تطوحنا الى جهة الشرق فى طريق تحيط بها الوهاد الرملية الى تل غير مشهور يدعى جبل هلال • وكان هذا الوادى يشبه من بعض الوجود حالة نجد من حيث الزراعة وترتيب العواصف الرملية فتعرفنا بقبيلتى عبيدة وطباها والى الشمال من ذلك بقايل بقبيلة طرابين وأيضا قبيلة العزازيمة وأيضا كنا قاب قوسين أو أدنى من التصادم معها منذ خمسة أعوام وكانت هذه القبائل كلها مستقلة عن تركيا وقتئذ تقيم فى الاراضى التى لا صاحب لها التى تكون الحدود بين سورية ومصر • وقد كانت هذه القبائل كما هى العادة دائما فى جهات بلاد العرب المستقلة — فى تشاحن بعضها مع بعض ، وكانت بينها ثارات الدم ولذا استمرت الحرب بينها بعضها مع بعض مما سبب كثيرا من القلاقل حتى الى قرب حدود غزة •

فلكى تضع الحكومة العثمانية حدا لهذه الاضطرابات نجأت

الى احدى وسائلها المعروفة فأرسلت دعوة الى زعيمى القبيلتين السابقتين للاجتماع بمتصرف غزة اجتماعا وديا ثم أمرت بالقاء القبض عليهما غدرا وخيانة وقد زجتهما فى سجن القدس كرهينة لحفظ السلام فى الحدود .

وفى ذلك الوقت كانت تقاليد النفوذ الانجليزى فى تركيا حية فى أذهان العرب فترتب على ذلك أن طلب الى ــ نظرا لمعرفتى بالزعيمين المذكورين ــ أن أتدخل مع الحكومة لاطلاق سراحهما . فقبلت التدخل رأفة بهما ، ثم استصحبت معى الشيخ القائم بشئون قبيلة طباها وهو على بن عطية والابن الصغير لشيخ قبيلة طرابين وقد ركبا برفقتنا الى القدس فسرنا بطريق التلال الى أن وصلنا القدس دون أن نعرج على مدينة أو قرية فى أثناء رحلتنا هذه ، وفى القدس زرت قنلصنا مور فى الحال فحصلت بواسطته على اذن من الباشا بزيارة السجن وهناك وجدت الشيخين المطلوبين فى طبقة سفلية تحت الارض بالقرب من جامع عمرو .

وقد كانا فى حالة يرثى لها اذ كانا يشكوان من الامراض والسجن الطويل فوسطت لهما عند الحاكم على شرط أن يرفرف السلام بين القبائل . وقد تمكنت من جعلهما يوقعان هذا التعهد ، ولكن المتصرف أعلن انه ليس فى وسعه اطلاق سراحهما

وأحالنى على رئيسه والى دمشق فهو الذى يستطيع أن يفعل ذلك .

فذهبنا الى دمشق بصحبة على بن عطية وبصحبة قافلة الجمالين عن طريق وادى الاردن وسهل حوران وهى سياحة شائقة ولذيذة لأن الارض نظرا لانقطاع الأمطار كانت كجنة عدن غاصة بالازهار البهجة .

وفى حوران وجدنا الحرب ناشبة بين الجنود العثمانية والدروز ولكنا تمكنا من المرور بين الجيشين دون أن يمسنا الضرر ووصلنا الى دمشق حيث القينا عصا التسيار أمام باب منزل صغير يحتوى على حديقة مساحتها فدان فى حى باب توما كنت ابتعته منذ ثلاثة أعوام عند بدء رحلتنا الى نجد .

وكان منزلنا فى دمشق ملاصقا لمنزل سيدة انجليزية مشهورة تدعى اللادى التيره أو المسز ديجى كما تدعى الآن ، فبعد مخاطرات غريبة فى الشرق والغرب تزوجت وهى طاعنة فى السن من شيخ بدوى من قبيلة عنيزة وأقامت فى دمشق مع بعلها مجول بعد أن أصبحت لاتحتمل متاعب حياتها السابقة فى الصحراء .

وقد علمنا منها ومن بعلها المجيد الذى كنا نعرفه جيد المعرفة أن خير وسيلة لاطلاق سراح المعتقلين هى ألا نعرض قضيتنا على القنصل ولا على الوالى مباشرة بل بطريق غير مباشر على صديقهم

الكبير السيد عبد القادر الذى عرفناه فى عام ١٨٧٨ والذى كان له أكبر نفوذ فى الحكومة فى دمشق فى كل ما يختص بالعرب •

وكان عبد القادر وقتئذ فى سن الشيخوخة وكان معتكفا على العبادة وكان موضع اجلال جميع سكان المدينة • وكان له بين عرب سورية بصفة خاصة أتباع كثيرون لأنه كثيرا ما أظهر انه حاميهم ومحامى مصالحهم •

وقد أكد لى مجول أن المسألة هى مسألة نقود مع الوالى فاذا تعهد السيد بأن يفتح باب المفاوضة وبيده مبلغ كبير فان النجاح محقق • فذهبت معه ومع على بن عطية الى عبد القادر فوجدناه مع ولده الاكبر محمد وهو رجل مستقيم ولد له من أم من الجزائر أثناء اقامته فى تلك البلاد • فوقفناه على مهمتنا فقبل السيد بارتياح أن يتوسط لنا لدى الباشا وأن يعمل الترتيب اللازم لاطلاق السجينين على الشرط المذكور وهو الاحتفاظ بالسلام العام بين القبائل ، ثم أعطيته كيسا يحتوى على ٤٠٠ جنيه فرنسى — بنتو — ذهبا فأخبرونى أن المبلغ كاف لتحقيق رغبتنا وكانت الرشوة من الامور العادية بين الموظفين العثمانيين وقتئذ حتى اننى لم أشعر لا أنا ولا السيد ولا أى شخص آخر بيننا بأى تردد فى تقديم النقود • وكان المبلغ كبيرا ولكن عطفى كان

شديدا نحو السجينين المعتقلين وكنت مصمما على ألا أرسل على بن عطية الى القدس الا مصحوبا بأمر الافراج عنهما . وعلى ذلك قدمت على هذه التضحية ولكن المفاوضات أخفقت فى ادراك الغاية المطلوبة . وبعد بضعة أيام جاءنى محمد بن عبد القادر ومعه الكيس دون أن يمس بشىء وأخبرنى أن والده كلفه بأن يبلغنى تحيات الوالى وأسفه لعدم استطاعته فعل هذا المعروف لأنه خارج عن حدود وظيفته . فان المسألة قد أبلغت الى الاستانة وهناك فقط يمكن تسويتها .

وان عاقبة هذا الحادث البسيط لمدهشة ولها علاقة مباشرة بما وقع فى مصر من الحوادث فى السنة التالية ، فبعد أن فشلت محاولاتى المحلية عملت بنصيحة الوالى وكتبت من فورى الى غوشن سفيرنا فى الاستانة وعرضت عليه القصة بحذافيرها . ولكيما أزيد اهتمامه بالمسألة أخبرته أن الحكومة الانجليزية قد تحتاج يوما من الايام الى حماية ضفة قناة السويس الشرقية من المهاجمة اذا نشبت الحرب بين انجلترا وبين احدى الدول الاخرى .

فاتخذ غوشن ــ على ما أتذكر ــ بعض الاجراءات ولما خلفه اللورد دوفرين فى منصب السفارة بعد بضعة أسابيع أوصاه غوشن بالاهتمام بالأمر ، وفى النهاية أجيب طلبى بعد طول

الانتظار وأفرج عن الشيخين • على أن اقتراحى بخصوص القبائل قد أثمر فيما بعد ثمرة من نوع لم أكن أتوقعه أو أرغب فيه ذلك لانه لما تقرر فى صيف عام ١٨٨٢ ارسال حملة ولسلى تذكر غوشن أو شخص آخر له صلة بالحكومة اقتراحى السالف فتقرر ارسال مندوب سرى لاستعمال اسمى فى القبائل التى تعرفت بها فى جنوبى غزة لجرها الى عقد تحالف مع القوات الانجليزية ضد الجيش الوطنى المصرى وكنت اذ ذاك كما قالوا « كالباحث عن حتفه بظلفه » وهذه هى بعثة بالمر الشهيرة التى سأتكلم عنها باسهاب فى حينه •

وكانت سورية وحدود بلاد العرب وقتئذ فى حالة تخمر سياسى • فقدكان هناك تياران من الشعور بين المسلمين بخصوص الجامعة الاسلامية أحدهما شعور التعصب الدينى وهذا كان مستمدا من السلطان نفسه والآخر شعور الرغبة فى الاصلاحات الحرة • وقد قيل لى فى دمشق ان الشعور ضد السلطان وضد الادارة العثمانية الفاسدة قد بلغ حدا يصح معه توقع الثورة فى أية لحظة وقد حادثت محمد بن عبد القادر فى ذلك الصدد فوجدته هو وأباه منتسبين لفريق الاحرار وأنه — كغيره من علماء العرب — من أنصار فكرة الخلافة اذا كان فى الامكان تحقيقها ، وقد خطر لى وقتئذ أن ليس بين العرب من هو أحق

بهذا اللقب من عبد القادر نفسه • وعلى ذلك رجوت محمدا أن يستطلع رأى أبيه فى ذلك الصدد ويسأله هل يقبل أن يكون زعيم هذه الحركة اذا جد جدها •

وقد فعل محمد ما أشرت به عليه وعاد الى يحمل رسالة من والده يقول فيها انه برغم شيخوخته التى تحول دون الاشتراك فعليا فى أية حركة من هذا القبيل فان أولاده يقبلون ذلك وانه لا يمانع فى ذكر اسمه كمرشح للخلافة اذا طلب اليه هذا الترشيح وعلى كل فان الحركة لا يمكن أن تصادف نجاحا الا بمساعدة من الخارج فان الحكومة العثمانية قادرة حربيا على كبح جماح القائمين بها وقد تم الاتفاق بيننا على أن أبلغ رده بصفة سرية الى الحكومة الانجليزية واستطلع ماذا تكون خطتها اذا حدثت ثورة فى سوريا • وهو ما فعلته بالفعل عن طريق الوسيط المعتاد بينى وبين مستر غلادستون وهو سكرتيره الخاص هاملتون • وقد سألت عن نوع المساعدة التى يمكن أن يعتمد العرب عليها؟ وقد اقترحت عند الاشارة الى خطاب هاملتون الذى سبق نشره أن مثل هذه الحركة قد تنظر اليها حكومتنا بعين الارتياح خصوصا بمناسبة المصاعب التى بينها وبين الباب العالى بخصوص اليونان •

ولكن اهتمام غلادستون بالشرق بل بالسياسة الخارجية

على العموم كان قد خمد وقتئذ خمودا تاما ولذلك كان جواب هاملتون موجزا ومثبطا للعزائم • فقد كتب يقول :

انى أؤمل أن يوجد ما يحول دون وقوع الحرب بين تركيا واليونان واذ ذاك تستغنى عن الالتجاء الى مشروعات فى سوريا• وكل ماأقولههو أنهيحتمل أنتوجد حالةكهذه، واذ ذاك يصبح من اللازم استعمال الوسائل التى تشير بها ولكن هذه الحالة لم توجد بعد • ان هذا مبهم وغامض ولكن أخشى ألا أستطيع أن أضيف الى ذلك شيئا آخر •

فلم أجد مناصا من السكوت على ذلك ولكننى بادرت بابلاغ النتيجة الى السيد •

ولم يكن لبقية سياحتنا فى ذلك الصيف أى غرض سياسى وقد زرنا أصدقاءنا من آل عنيزة مرة أخرى فوجدناهم ضاربين خيامهم بالقرب من بالميرا ولكن معاملاتنا معهم اقتصرت علـى شراء الخيول ولم تكن هذه القبيلة تعبأ بالسياسة فيما يخـرج عن دائرة الصحراء وكذلك كانت عنايتها بالمسائل الدينية قليلة• والواقع أن الانسان لا يستطيع على وجه التقريب أن يسميهم مسلمين فانهم لا يصومون ولا يصلون ولا يؤدون أى فرض من الفروض الدينية الاسلامية • وكل ما يربطهم بالاسلام هو انهم لا يزالون متمسكين بتقاليد الصحراء وهى التقاليد التى بنبت

عليها الشريعة ولكنهم لا يعرفون عن عقائد الاسلام الا التوحيد أما الرسل والاولياء والقرآن فذلك ما لا يعرفونه وكذلك لا يعرفون شيئا عن الدار الآخرة . وقد سحنا معهم الى أقصى حدودهم الشمالية حتى وجدنا أنفسنا فى حلب فى أول حرارة الصيف ومنها عدنا سريعا الى انجلترا (١)

تم الجزء الاول

ويليه الجزء الثانى ويستهل بالفصل السادس عن

« مقدمات الثورة المصرية »

---

(١) مما يخلق بالذكر بهذه المناسبة اننا تعرفنا فى حلب بضابطين بريطانيين لعبا بعد ذلك دورا كبيرا فى الشؤون المصرية وحرب السودان احدهما الكولونيل سينوات الذى اشترك مع غوردون فى الدفاع عن الخرطوم ضد حملات المهدى . والثانى الكولونيل السير شارل ولسن الذى قاد القوات البريطانية فى المتامنة بعد واقعة ابو كيله . وقد ساح سينوات بايعازى فى ذلك الصيف بين بدو عنبرة وشمر ولكنه لم يستطع ان يتفاهم معهم وهذا راجع فى الحقيقة الى خلوه من العطف على الشرقيين . اما ولسن الذى كان اوسع منه رأيا فقد صحبنا فى سياحة العودة حتى ازمير التى وصلناها وقت القبض على مدحت باشا وكان كلاهما فى ذلك الحين قنصلا متنقلا لبريطانيا فى تركية اسيا من النوع الذى نصت عليه معاهدة قبرص

مجموعة

« إخترنا لك »

تصدر

نصف شهرية باللغات العالمية

ويشترك في تحريرها واعدادها

لجنة « اخترنا لك »

المشرف على اللجنة

عبد القادر حاتم

سكرتير اللجنة

محمد عطا

المراسلات : ص٠ب ١٠٩٤ ــ القاهرة

مطابع شركة الاعلانات الشرقية